



# مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية

رجب 1442 هـ - فبراير 2021

## الصفحة الأولى...

### هلال الحجري

من القصائد الرائعة التي وُظف فيها الشعراء الإنجليز الثقافة العربية قصيدة بعنوان «العربي» للشاعر البريطاني تشارلز ستوارت كاليفيري (1844-1831). وهو معروف بشغفه الفكاهي الذي يستند على السخرية، وقد وصفه جورج رسل بأنه «شاعرٌ حقيقي، ومن أظرف العلماء الذين خَرَجْتهم جامعة كيمبريدج، وكل ما يتمتع به من حس فكاهي فيّاض بناه على معرفته العميقة بالآداب اللاتينية، واليونانية، والإنجليزية».

قصيدته «العربي» تبدو للقارئ المُتسرع أنها وصفٌ لقرسٍ عربي؛ ولكن مَنْ يتأملها يكتشف أنّ الشاعر يصف بها في الحقيقة صبيًا مُسَرَّدًا في شوارع إنجلترا! صحيحٌ أن كاليفيري استعار الحصان العربي لموضوع القصيدة من أول الأبيات وأسهب في وصف جماله وأصالته، لكنه في النهاية يظهر أنه ينعي حال الأطفال المشردين الذين جار عليهم الزمن وأصبحوا يمسحون أحذية المارة بمبالغ لا تسد رمقهم.

(العربي)

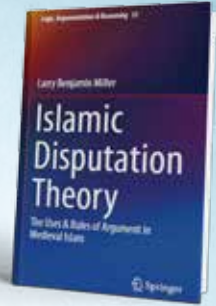
يا كَمَيْتًا عَرَبِيًّا اذْهَبَا \* قد قضيت اليوم رخصًا حَبَبًا  
أيقظوك الفجرَ والأجرُ هَبَا \* هل رُكَّامُ القَشِّ يكفي السَّغْبَا؟  
تَنْهَبُ السَّهْلَ وَحِيدًا حَافِيًا \* وَسَعِيرُ الظُّفْرِ يَغْلِي لَقَبَا  
لا يُرِيحُ العَيْنَ فِيهِ نَخْلَةٌ \* مَدَّتِ الظِّلَّ، ولا عُثْبُ رَبَا  
أُيْهَا الضَّامِرُ لا تَضْبَحْ سُدَى \* يا صديقي، ارْحَمِ القَلْبَ.. اذْهَبَا  
لو رأى النَّحَاتُ يوماً وَقَفَةً \* تزدهي فيها، رَأَى العَجَبَا  
تلعب الريحُ بِعُزْفٍ مُرْسَلٍ \* هل رأى الأُنْفَ الأَسْمَ الأَنْجَبَا؟  
هل تُراه ماهرًا في فَنَّة \* ينحتُّ الوجْهَ الكَرِيمَ الكُوكَبَا؟  
وَيَجَلِي عُقْبًا حُرًّا على \* كَلْجَلٍ صَخْمٍ، وَسُدْقًا رَجْبَا  
ثم يبري أَرْجُلًا ناعِمَةً \* تحمل الأثقالَ لَو مَثَلِ الرُّبَى  
لو رأى عَيْنَيْكَ، آه، لَرَأَى \* آيَةَ السَّخْرِ بِأَنحَاطِ الطُّبَا  
يا رَشِيقِي العَرَبِيَّ ائْبُذْ كما \* يَنْعُدُ الأَخْرَارُ عن مَرْغَى الوَبَا!  
لكن، اليومَ، فَيَايَ رَاحِلٍ \* ليس يُغْرِينِي أَرَاكَ الدَّنْبَا!  
كيف تغدو لُغْبَةً يلهو بها \* كُلُّ مَنْ رامَ صَدِيٍّ أو مَنْصَبَا؟  
مَجْدُكَ الخَافِتُ لا أُنْسُ به \* وَخِذَاءُ القَوْمِ يعلو السُّخْبَا!  
أطعموك الذَّلَّ، قُلْ لي: كيف لا \* يا سليلَ العُرْبِ، أَجفوكِ إِبَا؟  
يا وَحِيدَ العَيْنِ! ما ذاك القَدَى \* في الجَبِينِ الحُرِّ؟ ساءتْ مَطْلَبَا!  
ماسحَ الحُقَيْنِ، والسَّيْجَارِ في \* فَمِّه، اهْرُبْ صغيري اهْرُبَا!



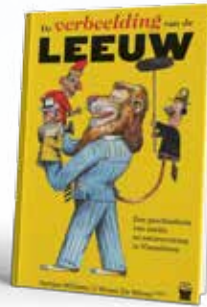
مدينة الليبرالية الجديدة  
جيل بينسون



الصليب والكوفية  
باولا بيزو



النظرية الإسلامية في المناظرة  
لاري بنيامين ميلر



"مخيلة الأسد"  
غيرتيان ويليمس وبرونو دي



"دبلوماسية الملكيت"  
لودميلا بودرينا



إمبراطوريات الضعفاء  
جي سي شارمان



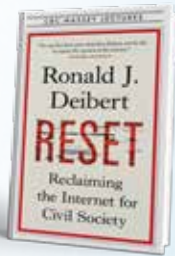
نهى الممتلكات العربية  
آدم راز



علوم الحديث  
إم. إس عبد الرزاق



ديمقراطية بدون اختصارات  
كريستينا لافون



إعادة الضبط  
رونالد ديبرت

## إصدارات عالمية جديدة





## النظرية الإسلامية في المناظرة.. استعمالات الحجة وقواعدها في العهد الإسلامي الوسيط لاري بنيامين ميلر

مُحمَّد الشَّيخ \*

«كان على (كتاب) النظرية الإسلامية في المناظرة أن ينشر منذ ٣٥ حولا. وأنه لحقاً من العار والشار ألا يكون قد نشر من ذي قبل... هذه هي الخلاصة التي ينتهي إليها والتر إدوارد يونج، المتخصص في آداب البحث والمناظرة الإسلاميين بمعهد الدراسات الإسلامية التابع لجامعة ماكجيل الكندية، بعد تقويمه لهذا الكتاب. وبالفعل، فإن الكتاب الذي بين أيدينا -«النظرية الإسلامية في المناظرة»- يُعد بحق أول كتاب غربي جامع لأشوات النظريات الإسلامية في الجدل والمناظرة الكلامية والفلسفية والأصولية.»

في التأثر بطرائق المنطق؛ حيث استأنس الأصوليون غاية الاستئناس بهذه الطرائق في مباحث الجدل. أكثر من هذا، أعادوا صياغة قواعد الجدل الكلامية القديمة على ضوء قواعد المنطق التي نزلوها على المناظرة الأصولية تنزيلاً. وسرعان ما ظهر الوجه الأخير من هذا التطور نحو نظرية عامة في الجدل تمثل في ما عُرف باسم «آداب البحث» أو «آداب المناظرة»، والذي يعد توليفة لكل ما تقدم من الجهود. ويقف المؤلف في كل فصل عند لحظة من لحظات هذا التطور. ففي الفصل الأول التأسيسي يذهب إلى أنه حوالي نهاية القرن التاسع الميلادي كتب ابن الراوندي كتاب «آداب الجدل»، مدشناً بذلك القول في هذا المضمار. وبعد جيل أو جيلين كتب أبو القاسم البلخي كتاباً في الجدل سعى فيه إلى تقويم ما افترض أنها غلطيات في كتاب الأول. ورد الأشعري على رد البلخي منتصراً لابن الراوندي، وكذلك فعل الماتريدي الذي دافع بدوره عن ابن الراوندي. على أن كل هذه الأعمال ضاعت، ومن حسن الحظ أن المفكر اليهودي القرقساني -صاحب كتاب الأنوار والمراقب- حفظ لنا بعض تلك النصوص التي تعزى إلى ابن الراوندي من الضياع؛ هذا فضلاً عما حفظه المعتزلي المقدسي والشيعي الكاتب والظاهر ابن حزم والأشعري ابن فروك. وبناء على هذه المظان، يعيد المؤلف بناء الأعمال الجدلية من فترتها المبكرة، مقابلها بإعمال الفارابي في الجدل؛ وذلك عبر خمسة أقسام: صلة الجدل بالنظر، السؤال والجواب، المعارضة، دلائل الانقطاع في الجدل، آداب الجدل. ومن خلال هذا العرض، يخلص إلى «إجماع» المتكلمين الذين تكلموا في الجدل على جملة القواعد الإسلامية للمناظرة: قواعد الشروع في المناظرة، طبيعة الأسئلة المسموح بها، نوع المعارضات المباحة، كيفية تحديد من انقطع، قواعد السلوك وآداب المناظرة. وقد وقف عند بعض الأمور التي لم يتم التنظير لها، لكنه وجد على العموم أن النظرية كانت قد أقيمت على أساس سليم. وفي الفصل اللاحق، ناقش المؤلف أنظار الفلاسفة في الجدل.

الأخير)، بينما يهمل مجهودات المفكرين العرب؛ ومن بينهم جهود طه عبدالرحمن وتلميذه حمو النقاري وتلميذيهما... ويقدم لمحة موجزة عن تطور فن المناظرة من أعمال الجاحظ إلى عهد قريب، مشيراً إلى عشرات الأعمال؛ فضلاً عن الحواشي التي تأثرت عنها. ثم يعدد مزايا المؤلف ومؤلفه؛ ومنها أنه كان سابقاً إلى وضع الحجر الأساس لدراسة النظرية الإسلامية للمناظرة. ولم يكتف باستعراض تاريخ نظريات المناظرة في الإسلام، وإنما نَحَتَ نظرية على ضوء الأدوات الحديثة، وزودنا بمعجم كامل لهذه النظرية. ولم يعمل فحسب على إعادة رسم المسار التاريخي الذي اتخذته المناظرة، عونا منه للباحثين اللاحقين وتيسيراً لمهمتهم حتى يبنوا عليه ويدققوا، وإنما أحاط بمختلف تفرعاتها. وبالجملة، الكتاب نحت لنظرية ولطراز ولنهج ولمعجم. ويقع الكتاب في أربعة فصول، فضلاً عن مبتدى ومنتهى وكشاف مظان وثبت مواضع ومسرد أعلام؛ هي على التوالي: الفصل الأول: الجدل الكلامي. الفصل الثاني: الجدل والفلسفة العربية. الفصل الثالث: الجدل في علم الأصول. الفصل الرابع: آداب البحث ويشير المؤلف في مدخل كتابه إلى أنه سوف يسعى لرسم معالم ما يسميه «النظرية الإسلامية في الجدل» على مدى أربعة عشر قرناً. ويومئ إلى أنه برزت في هذه المدة ثلاثة مباحث كبرى خَصَّتَ الجدل: مبحث كلامي ومبحث أصولي (نظرية خاصة)، ومبحث عام (نظرية عامة). ومجمل أطروحته في هذا الصدد أن الجدل تطور في حضارة الإسلام ثلاثة أطوار: أول من افتتح القول في هذا المجال وشغل المتكلمين إنما هو ابن الراوندي. ثم ما لبث علماء الأصول المسلمون أن عنوا بهذا الجانب، متأثرين بما جرى في علم الكلام، وكان أن أنفذوه على الأصول مستعاضين عن الأمثلة الكلامية بالأمثلة الأصولية. وسرعان ما اجتهدوا في ذلك الاجتهاد؛ لا سيما في قسم الاعتراضات، أما في قسم السؤال، فقد اتبعوا نظام السؤال الكلامي عينه. ثم حدث تطور ثان مهم تمثل

لكن دعنا، بدءاً، ننبه إلى أمر عَجَب: وهو أنه من عجيب ما بات يقع في حقل تجديد الفلسفة الغربية المتواصل منذ أمد، وعلى الأقل منذ العقدين الأخيرين، ظهور مباحث فلسفية جديدة لربما لم تكن لتخطر على البال. وأعجب العجب، أنها باتت تلتقي لقاء غريباً مع مباحث من تراثنا العربي الإسلامي كادت أن تسمى نسبة منسية. وقد انقسمت هذه المباحث الجديدة -أو لربما المستأنفة- إلى قسمين أساسيين: قسم إستمولوجي صرف (متعلق بمسألة المعرفة)، وقسم إثيقي بحت (متعلق بمسألة الآداب والأخلاق والقيم). يكفي أن نذكر، على سبيل المثال، ثلاثة مباحث جديدة: «مبحث الخلاف»، معرفة وأدبا؛ و«مبحث الاعتقاد»، علماً (إستمولوجياً لاعتقاد) و«مبحث أخلاقيات الاعتقاد»؛ و«مبحث الوحي»، معرفة (إستمولوجياً الوحي) وأخلاقية. وما كان «مبحث المناظرة» يبدع من هذا؛ إذ أعادت النظريات الحوارية والنقاشية والتواصلية المعاصرة، التي يقول بها العديد من فلاسفة اليوم، اهتمام الباحثين بالتراث الحوارية والجدلية والخلافة القديمة، قواعد وأدبا. وليس لنا أن نخجل بهذا الصدد من تراثنا العربي. فقد أوفى وأشفى. إذ وجدت فيه من عيون النظر في الجدل والحوار والمناظرة والمجادلة الشيء العديد. ولربما لم تعتن حضارة بقواعد المناظرة وأدباها مثلما اعتنت الحضارة الإسلامية. ذلك أن ثمة مئات من النصوص في هذا المضمار: ما بين نص وحاشية وتعليق وضميمة. وفي تقديمه لهذا الكتاب، يشير والتر إدوارد يونج إلى أن أصله رسالة دكتوراه بقيت لأمد حبسية رفوف مكتبة الجامعة، مع أنها «عمل رائد». ويذكر أن الاهتمام بالتراث الجدلي الإسلامي وتجديد البحث فيه أمر سبق إليه العديد من أهل الدراسات الإسلامية الغربية أو من تلامذتهم من العرب بالغرب (يشير إلى فان إس وجورج مقدسي وولفهارت هاينريكس وفاجدا منذ النصف الثاني من السبعينيات، ويضيف اسمي عبدالصمد بلحاج وأمير ديزي في العقد



التقى معه في رسم معالم ظهور علم الجدل، على اختلاف في التقويم، حتى وإن فاته العثور على كتابه. يقول البغدادي: «وأما المتكلمون المصنّفون في الجدل؛ فالسابق منهم إلى التصنيف ابن الراوندي، وإنما بين في كتابه أقسام الأسئلة والأجوبة، ووجوه المعارضة في الكلام، واعتراض الكعبي عليه في أشياء رغم أنه أخطأ فيها، وصنّف شيخنا أبو الحسن الأشعري بعدهما «رسالة في نقض اعتراضات الكعبي على ابن الراوندي في جدله»، وأوضح فيها عن عذر ابن الراوندي وأحال بالخطأ على مخطئته. وصنّف الأشعري بعدهما كتاباً وجيزاً في «أدب جدل المتكلمين»، مقصوداً على وجوه الأسئلة والأجوبة والمعارضة، وليس لأهل الفقه فيه ولا في كتب ابن الراوندي طائل في جدلهم. وصنّف الكعبي بعدهما كتاباً وسمّاه «تجديد النظر»، وليس فيه تحقيق حدّ، ولا إيضاح قانون من قوانين النظر، وإنما حشاه بذكر نصوص سرقها من كتاب ابن الراوندي، وطول كل باب من كتابه بتقريب بعض أسلافه من القدرية، وأمعن في مدح الجاحظ الذي ليس له، مع كثرة كتبه، ورقة في آداب الجدل، ولا في أصول الدين».

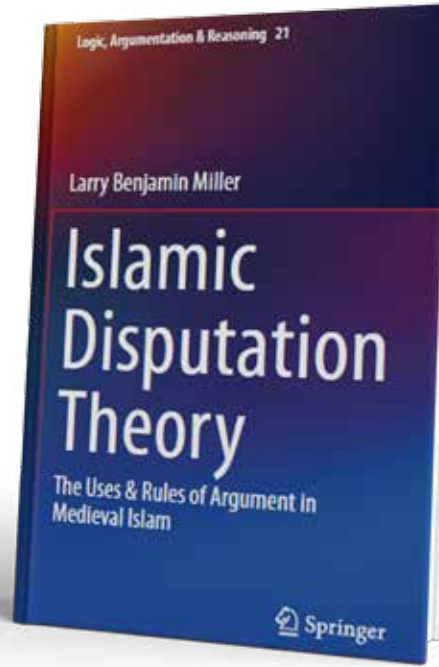
وأخيراً.. يذكر صاحب كتاب «نصيحة المحب في ذمّ التكسب بالطب» مصيبة ابتلي بها طلبة الطب في زمانه والذين ما عادوا يكبّون على التصانيف الطبية ويتدارسوها، وإنما باتوا «يتصفّحوها» مجرد التصفّح على طريقة مرور الكرام؛ فيقول: «ولقد حضرت رجلاً من الصدور كان يشتغل بعلم الطب على بعض مشايخه، وكان يقرأ باباً ويصفّح بابين، وإذا قطع في أمسه إلى الباب العشرين مثلاً ثم حضر اليوم وسأله الشيخ: «أين بلغت؟» قال: «إلى العشرين»؛ فخلوت به وقلت له: «ما الفائدة التي تحصل بهذا الاشتغال وأنت تصفّح أكثر الكتاب، والذي تقرأه أيضاً تقرأ منه سطرًا وتهمل سطرين؟» فكان جوابه أن قال: «علم الطب علم يمكن الإنسان أن يطالعه ويفهم معانيه من غير شيخ ولا موقّف، وليس المراد بقراءتي على الشيخ إلا أن يكتب لي على الكتاب، ويسهل لي الإجازة والأهلية». كلا؛ ما كان كتاب النظرية الإسلامية في المناظرة بالكتاب الذي يكتفى معه بتصفّحه، أو حتى ليُقرأ قراءة الوهلة الواحدة، وإنما كلما أعدت قراءته وقفت على استبصار جديد للمؤلف كأنك لم تقرأه من ذي قبل أو لم يخطر ببالك التلبث عنده.

## .. الكتاب: «النظرية الإسلامية في المناظرة».

.. المؤلف: لاري بنيامين ميلر.

.. الناشر: سبرينجر، 2020م.

\* أكاديمي مغربي



عن طريق تبنيها للمنطق ولفلسفة الأرسطيين، كما للقواعد التي صيغت في سياق الجدلين الكلامي والأصولي. وقد ركز المؤلف في هذا الخصوص على عمل السمرقندي. ذلك أنه فضلا عن كون هذا العمل كان عملاً مبكراً صين من الضياع، فإن صاحبه زعم أنه اهتدى إليه بكده. وتناول الباحث بالدرس الرسالة السمرقندية في آداب البحث وشروحيها وتعاليفها؛ فضلا عن كتاب القسطاس للمؤلف نفسه - لا سيما منه الفصل الخاص بالبحث والمناظرة؛ وبالأخص باب التعريفات والمسائل والدليل والأمانة. والجديد الذي طرأ هنا أنه تمت الاستعاضة عن اسم «الجدل» باسم «النظر» أو «المناظرة» عنواناً للمبحث؛ لا سيما وأن «المجادلة» بقيت تحمل الدلالة القدحية الأرسطية من حيث إنها تغني الإقناع وليس الحق. وقد عني المبحث الجديد - «علم المناظرة» أو «آداب البحث» - بقواعد التناظر. والحال أن هذا التبديل في التسمية حمل معه التغيير في الموضوع؛ بحيث صار المنطق الآن هو الحكم بما أن المادة ما بقيت تستقى من أصول الفقه أو علم الكلام وإنما من «المسائل». وكانت الرسالة السمرقندية أول الغيث، تلتها أعمال الإيجي والجرجاني والمرعشي والكلبوي وطاش كبرى زاده. وكل هذه الأعمال عمدت إلى تهذيب الرسالة وتشذيبها، على أنها لم تغير في جوهرها؛ إذ بقي نظام المناظرة هو هو، وظلت التعريفات والاصطلاحات والوظائف هي هي.

لا مجال لإنكار أن المؤلف بذل جهداً كبيراً في عمله التأسيسي هذا. يكفي أن ننوه هنا إلى الجهد الترجمي المعاكس - من العربية إلى الإنجليزية - الذي بذله في نقل مفاهيم المناظرة. لكن، وعلى الرغم من الجهد الذي قام به المؤلف بالعودة إلى قراءة عشرات المخطوطات التي لم تكن قد طبعت بعد آنذاك، فإنه لربما مما يمكن أن يأسف له المرء أنه لم يهتد إلى أحد أهم كتب الجدل وأدب المناظرة في علم الكلام. وهو كتاب عبد القاهر الجرجاني: «عيار النظر في علم الجدل». والغريب أنه

فذكر مظان من سماهم «الفلاسفة الأرسطيين العرب» «الفاربي، ابن سينا، ابن رشد»، وأشار إلى كتابي «المواضع والجدل» الأرسطيين باعتبارهما المنهل الذي استقى منه هؤلاء الفلاسفة في الحديث عن الجدل. وتناول في هذا الفصل مواضيع شأن: ما الجدل؟ وطبيعة الأسئلة الجدلية سواء من حيث الصورة أو المادة، وقواعد الجدل الخاصة بالسائل والمجيب، ثم الشركاء في الجدل. وختم بنظرة عامة عن الجدل في علم الكلام والفلسفة، مركزاً على فكرة أن فلاسفة العرب وإن هم أقرروا بصناعة الجدل، فإنهم اعتبروها أقل منزلة من صناعة البرهان؛ ومن ثمة خالفوا المتكلمين.

وفي الفصل الموالي، تناول المؤلف الجدل في أصول الفقه. وذهب إلى أنه بعد انصرام قرن بالكمال على عمل ابن الراوندي الرائد، شهد مجال القول في الجدل تعالفاً بين الأصلين. أصول العقيدة وأصول الشريعة. منذ البدء تآدى إلى تأثر. وما هو مثير، في نظر المؤلف، إنما هي الطريقة التي استنبت بها الجدل في علم الأصول، وصار جزءاً منه لا يتجزأ بدءاً من القرن التاسع الميلادي. فكان ثمة الجدل الأصولي والجدل الفقهي. وحدثت حقبة مبكرة في خلوصها (أبو إسحاق الشيرازي: «معونة المبتدئين وتذكرة المنتهين في الجدل»، تبعه في ذلك تلامذة شأن ابن عقيل (كتاب الجدل على طريقة الفقهاء) والباقي (المنهاج في ترتيب الحجج). واختتمت هذه المرحلة بالكتاب المنسوب إلى الجويني «الكافية في الجدل». ثم سرعان ما مازجها المنطق الممازجة على الطريقة التي سميت «طريقة المتأخرين». وقد ناقشوا أقسام السؤالات الجدلية الأربعة وطبيعة المطالبة والاعتراض والمعارضة والممانعة وفساد الوضع والقلب والاشتراك في الدلالة والنقض والمناقضة والقول بموجب العلة وعلامات الانقطاع وأدب الجدل ... أعقبت هذه مرحلة وسطى استجذبت فيها طرائق في الجدل؛ نظير طريقة أبي اليسر البزدي (التي ضاعت) وطريقة ركن الدين العميدي. هذا فضلاً عن طريقتين في الجدل أخرتين: طريقة المروزي وطريقة السرخسي. وحدثت بين هذه الطرق تألفات وتخالفات. ثم صير إلى المرحلة الختامية، وفيها غلب المنطق غلبته. وأفضل ممثل لها هو برهان الدين النسفي. صاحب «المقدمة البرهانية» أو «الفصول». والذي لعب دوراً محورياً في النظرية العامة للمناظرة التي سوف تعرف بسمى «آداب البحث»؛ لا سيما مع مؤسسها شمس الدين السمرقندي الذي تلمذ للنسفي.

وفي الفصل الأخير، تناول المؤلف التخصيص «منطق المناظرة» أو «آداب البحث». إذ أخيراً صار للجدل بُعداً شمولي؛ بحيث ما عاد يتعلق بعلم بعينه (الكلام، الأصول، النحو...)، وإنما بات يشمل كل المعارف الإسلامية التي تبني بالنظر. وقد أشرت على هذا الرسالة السمرقندية الشهيرة. ونبه المؤلف إلى أن فرعي الجدل الكلامي والأصولي شكلا رافدين للنظرية العامة في المناظرة التي هي «آداب البحث». وركز المؤلف على كيف أن «آداب البحث» بزغت مبحثاً مستقلاً وجنسا تأليفاً منفصلاً



## الصليب والكوفيّة تاريخ المسيحيين العرب في فلسطين باولا بيزو

عزالدين عناية \*

ثمة قطاع واسع في الدراسات الدينية لازال التعامل معه في الثقافة العربية ضمن أدوات المفاضلة والمناكضة والبكائيات وما شابهها، وهي أدوات مضلّة ومشوّهة لا تمتّ بصلة للدراسات العلمية للأديان. فهي عائدة إلى ضعف التكوين في حقل معرفي يقوم أساسا على فصل ما هو ذاتي عما هو موضوعي، وما هو لاهوتي عما هو علمي. حتى أنّ كتاباتنا حول اليهودية والمسيحية، على سبيل المثال، لا يُعتدّ بها في المدوّنة العالمية ولا تلقى حظوة لضعف بنيتها المعرفية وترهل منهجها. ما يجعلنا في هذه المساحة المتاحة لنا من عرض المؤلفات الغربية نشير إلى الإنجازات المقدّرة في مجالات الدراسات العلمية للأديان في اللسان الإيطالي. وقد أثرنا في هذا العرض تناول كتاب على صلة بتاريخ المسيحية الفلسطينية تحديداً.

البيضاء، ٢٠١٠)، لحرصنا على جعل حقل المسيحية العربية مبحثاً دراسياً علمياً بعيداً عن البكائيات التي تحاصر كثيراً من الدراسات.

استطاعت الباحثة الإيطالية أن تقدّم خلاصة موثقة رصينة عن واقع تجمّع ديني بات يتهدده الذوبان في ظلّ التحوّلات القاهرة. وترتني أنّ حشر المسيحية والإسلام ضمن منظور قومي لائكي قد استنفد طاقته، وأن البراغمية تستوجب البحث عن رابطة مواطنية تقوم على المساواة والكرامة وتستند إلى خطة ديمقراطية للكليات الهشة، ودون الوقوع رهن ثنائية الأغلبية والأقلية. إذ أنّ تناول الحديث عن الفلسطينيين المسيحيين بمنطق الأقلية هو أمر غير مقبول وفاقد للصلاحية، من قبل عموم الفاعلين الفلسطينيين، لما في ذلك من تهوين وتحقير للدور المسيحي. فمنذ فترة العشرينيات من القرن الماضي، حين بدأ العرب يتلمّسون طريق التحرر والاستقلال، ظهرت قيادات مسيحية في فلسطين ودول الجوار، تحمّلت الدور التفاوضي والتواصل مع الغرب.

ومنذ السنوات الأولى للانتداب البريطاني كانت الحركة الوطنية الفلسطينية منتظمة في جبهة موحّدة، تخلو من الطابع الديني، وذلك ضمن وفاق إسلامي مسيحي نادى بعروبية فلسطين في مواجهة المشروع الصهيوني. بدا ذلك التلاحم جلياً، حتى أنّ عائلة الغوري المقدسية المسيحية، كانت تعقد الاجتماعات لوجهاء المسيحيين في بيت الأسرة لصياغة النداءات الموجهة للمندوب البريطاني التي أعربت فيها عن أنّ الجالية المسيحية لا تعترف برجل يتولّى منصب الإفتاء لفلسطين سوى للمرشّح الحاج أمين الحسيني وذلك أثناء حملة تنصيبه مفتياً (١٩٢١). وتشير الباحثة إلى أنّ عائلة الغوري قد توزّعت نضالاتها الوطنية المبكرة على عدّة جبهات. فقد وقف إميل الغوري (١٩٠٧-١٩٨٤) في

ظلّ أوضاع الاحتلال، ثم عرّج البحث على علاقة المسيحيين بالكيان الإسرائيلي وبالسلطة الفلسطينية.

نشير إلى أنّ باولا بيزو مؤلفة الكتاب، هي مستعربة إيطالية ومؤرّخة تدرّس التاريخ المعاصر للبلدان الإسلامية في جامعة كيبتي بسكارا في إيطاليا. وتدور مجمل أبحاثها حول العلاقات المسيحية الإسلامية في الشرق الأوسط. نذكر من بين أعمالها المنشورة «المسيحيون والمسلمون في مصر إزاء الطروحات القومية: ١٨٨٢-١٩٣٦»، (٢٠٠٣) و «الإسلام في المتوسط... اللقاء مع أوروبا وتحديات الحداثة» (٢٠١٠).

تركّز الاهتمام في المحور الأول على إبراز الترابط المتين بين المسيحيّ الفلسطيني وأرضه، حيث حاولت الباحثة بيان عمق الصلة بين المسيحي ومعلمه. فقد وصف المسيح (ع) صحبه الأوائل من سكنة فلسطين وما جاورها، أو لنقل بعبارة جغرافية قديمة من أهالي سوريا الكبرى، بقوله: «أنتم ملح الأرض... ونور العالم» (متّى: ١٣-١٤). فقد خلّع المسيح على شيعته ذلك الوصف قبل أن تتعبأ الديانات داخل قوميات، وقبل أن تغدو عناوين جامدة وثابتة لشعوب وأقوام وأجناس وأعراق. ولعلّ ذلك هو المعنى الجوهرى لرسالة الدين والتدين المتخفّف من تلك الحمولة القومية المفرطة، والوارد في قوله تعالى: «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً» (آل عمران، ٦٧). لنتابع مع الباحثة باولا بيزو رحلة البحث عما تبقى من ذلك الملح في كتاب «الصليب والكوفية» رغم سائر المحن التي أمت بأتباع الناصريّ. فالكتاب هو من الكتب الجادة والرصينة في دراسة واقع مسيحيّ فلسطين وتاريخ المنطقة بعيداً عن النبرة البكائية الطاغية على مجمل كتابات العرب المعاصرين، كلّما تطرّقوا إلى موضوع المسيحيين الراهن. والتي سبق أن حدّرنا من تداعياتها السلبية على فهم واقع المسيحية العربية وتلمّس حلولها في كتابنا «نحن والمسيحية في العالم العربي وفي العالم» (الدار

فهذه الكلمات تستهلّ الباحثة الإيطالية باولا بيزو كتابها «الصليب والكوفية.. تاريخ المسيحيين العرب في فلسطين» يبدو الصليب والكوفية رمزين متناقضين، أو لنقل الواحد على نقيض الآخر، في المخيال الغربي، في حين يفصح التاريخ عن تلاحم وثيق وحي، بين أرض فلسطين والإيمان المسيحي. فقد سكن المسيحيون العرب فلسطين ومنطقة الهلال الخصيب، منذ عهد المسيحية الأولى بدون انقطاع وإلى اليوم. في هذا المؤلف تتبّع الباحثة باولا بيزو تاريخ أتباع المسيح (ع) في أرض فلسطين من البدايات إلى وقائع التاريخ المعاصر، في مسعى لصياغة خلاصة جامعة.

توزّع البحث على ستّة محاور أساسية، غطت مختلف أطوار التاريخ الفلسطيني وجاءت معنونة على النحو الآتي: «بدايات التاريخ الأولى»، وذلك منذ ظهور المسيح (ع) إلى احتضان الإسلام هذا الدين وانضمام المسيحيين إلى مكّون حضاري جامع؛ «المسيحيون والنهضة العربية»، تناول أبرز إسهامات الكتاب والمفكرين الفلسطينيين في بلورة مشروع النهضة العربية؛ «الهوية الفلسطينية بين الدين والقومية»، وقد تركّز فيه الحديث على الطابع التعددي للهوية الفلسطينية وعلى دور المسيحيين إبان الانتداب البريطاني، فضلاً عن مظاهر مقاومة المدّ الصهيوني في صفوف المسيحيين؛ «تأجج أوضاع فلسطين»، تناول أحداث الثلاثينيات من القرن الماضي التي عصفت بفلسطين، حيث تعرّض للنشاط التبشيري الهائل وللهجمة الصهيونية الغاشمة ومواقف مسيحيّ فلسطين وتجزّدهم في حركة المقاومة؛ «١٩٤٨.. المسيحيون والنكبة»، ركّز بالأساس على أوضاع المسيحيين قبل النكبة وأثناؤها، وأبرز ما حاق بهم من اجتثاث وما لحق بالباقيين منهم من تضييق وتكليل؛ «تحديات المستقبل»، انشغل هذا المحور بما هزّ أوضاع المسيحيين من تحولات في الحقبة الراهنة، فضلاً عن تعرّضه للنزيف المسيحي في



٢٠١٧، بلغ عدد المسيحيين ٤٦,٨٥٠ أغلبهم من الكاثوليك. ويقوم السواد الأعظم منهم في الضفة الغربية، وتحوز بيت لحم ٢٣,١٦٥، ورام الله ١٠,٢٥٥، والقدس ٨,٥٥٨، وقطاع غزة ما يزيد عن الألف. تشير إلى أن ٤٠ بالمئة من المسيحيين المقيمين في القطاع قد غادروا غزة، منذ العام ٢٠٠٨ وإلى غاية العام ٢٠١٦.

وبشأن أوضاع كنائس الداخل، تورد الباحثة أن إسرائيل تعترف لبعض الجماعات المسيحية التي لها وجود يعود إلى الفترة العثمانية ببعض الحقوق، على غرار الأحكام الخاصة المتعلقة بالأحوال الشخصية في تسوية أمور الزواج والطلاق والميراث. كما تتمتع الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية، والكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية، والكنيسة السريانية الأرثوذكسية، والكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والكنيسة المارونية، والكنيسة الإغريقية الكاثوليكية (الملكانية)، والكنيسة السريانية الكاثوليكية، والكنيسة الأنغليكانية، الكاثوليكية، والكنيسة الكلدانية، والكنيسة الأنغليكانية، ببعض الحقوق. وقد حرصت الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية على الحفاظ على الوضع القائم بما يضمن لها أفضلية على الكنائس الأخرى. لذلك حرصت هذه الكنيسة على التعاون الجيد مع السلطات الإسرائيلية، وهو ما تواصل إلى أواسط الثمانينات. وتشير الباحثة إلى إلحاح أتباع هذه الكنيسة داخل فلسطين والأردن على مراجعة أوضاع التسيير في هذه الكنيسة على أساس الانتخابات. كما تبقى الكنيسة الأرمنية المالك العقاري الأهم في المدينة القديمة.

تبرز الباحثة أن تراجع أعداد المسيحيين الفلسطينيين لا يمثل تحدياً للدول العربية وحدها، بل لسياسة التعايش الإسرائيلية أيضاً. والمشكلة أن الجماعات اليهودية المتطرفة، ليس المسيحيون فحسب من لا يجدون ترحيباً لديهم، بوصفهم «ضالين»، بل حتى المسلمين «الموحدين». وكما تقدّر الباحثة أن حل المسألة لا يقتصر على الاعتراف بحقوق المسيحي العربي، بل في خلق وفاق اجتماعي ثقافي من شأنه أن يغذي الرغبة الجماعية في العيش معاً.

## • الكتاب: الصليب والكوفيّة.. تاريخ

### المسيحيين العرب في فلسطين.

#### • تأليف: باولا بيرو.

### • الناشر: منشورات ساليرنو (روما)

#### • باللغة الإيطالية.

#### • سنة النشر: 2020.

#### • عدد الصفحات: 167 ص.

\* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا



١٠,٠٠٠ مسيحي.

وما إن هدأت عمليات التهجير حتى شهدت الناصرة تضاعف عدد سكانها بشكل متسارع بين ١٩٤٨ و ١٩٤٩، وتحوّلت إلى شبه ملجأ لعرب الداخل. فمع أواخر الانتداب كانت المدينة تعدّ ١٨,٠٠٠ ساكن ومع أول إحصاء إسرائيلي سنة ١٩٤٩ بلغ العدد ٣٠,٠٠٠. وتشير بعض الدراسات التي أجريت خلال أواخر القرن الماضي أن عدد سكان المدينة ستون ألفاً، ٧٠ بالمئة منهم مسلمون. وتشير الباحثة إلى أن عدد المسيحيين، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، قد ناهز ١٣٥,٠٠٠ على عدد جملي ١,٧٥٠,٠٠٠ ساكن، ما يساوي ٨,٨ بالمئة من المجموع العام. كما تشير الباحثة إلى أن ٧ بالمئة من لاجئي ٤٨ كانوا من المسيحيين. وأن قرابة ١٤٠,٠٠٠ من المسيحيين، كانوا يقيمون في فلسطين خلال العام ١٩٤٨، أجبر ٥٠,٠٠٠ منهم على الرحيل القسري، ما يعني الثلث تقريباً. وهو ما جعل عدد المسيحيين بعد النكبة يتراجع من ٨ بالمئة إلى ٢,٨ بالمئة. وتذهب بعض الدراسات التقديرية التي أجريت خلال الفترة الأخيرة إلى أن أعداد المسيحيين كانت مرشحة أن تبلغ ٦٠٠,٠٠٠، لو لم تكن النكبة، في مقابل ما هو موجود في الوقت الحالي ١٧٠,٠٠٠. فهذا العدد يمثل ٢٨ بالمئة من المجموع العام للمسيحيين، أي من قرابة ٦٠٠,٠٠٠ من مسيحي الشتات الموزعين في شتى أرجاء العالم.

من جانب آخر تشير الإحصائيات الإسرائيلية العائدة إلى العام ٢٠١٩ إلى أن عدد عرب فلسطين ١,٩١٦,٠٠٠، ويمثلون ٢١ بالمئة من المجموع العام. ويبلغ عدد المسيحيين بين هؤلاء ١٧٧,٠٠٠، أي بما يعادل ٢ بالمئة من التعداد العام، وبما يساوي ٧,٢ بالمئة من تلك العربية مع استثناء الأجانب. هذا وقد سجّلت الكتلة المسيحية تزايداً بـ ١,٥ مقارنة بالعربية ١,٧ بالمئة واليهودية ٢,٢ بالمئة. من جانب آخر وحسب الإحصاء الذي أجري في أراضي السلطة الفلسطينية، خلال العام

وجه عمليات عربنة المسيحية الشرقية من قبل المبشرين الأجانب، حتى وإن قبل الأهالي، على مضي، بالخدمات المتاحة في المجال التعليمي والثقافي والاجتماعي.

وتبرز الباحثة باولا بيرو أن تنبّه الشوام، بمسليمهم ومسيحيهم، لحمالات التبشير الأولى كان حازماً. فخلال العقود الأخيرة من الوجود العثماني في المنطقة الشامية بات الأهالي يسعون للتحويل على أنفسهم أمام تفاقم الأنشطة التبشيرية. وأقيم للغرض العديد من المبادرات في أوساط المسلمين والمسيحيين لمواجهة تلك الحملات. ففي بيروت أنشأ بطرس البستاني «المدرسة الوطنية» (١٨٦٨)، وبعد عشر سنوات أنشأت «جمعية المقاصد الخيرية» مدارسها. وتم في طرابلس فتح «المدرسة الحميدية» (١٨٩٥)، وفي حيفا أنشئت «المدرسة الإسلامية» حيث درّس الشهيد عزالدين القسام، وفي القدس بعثت بطرياركية الإغريق الأرثوذكس المدرسة الثانوية مارمري.

وعلى ما ترصد الباحثة، كانت النظرة لرامي المبشرين الأجانب في بداية القرن، سواء من قبل المسيحيين أو المسلمين الفلسطينيين، بمثابة الانتهاك لثقافتهم الوطنية والتهديد لهويتهم المشتركة. وكانت التكتلات المسيحية في لبنان وفلسطين، وكما هو الحال مع أقباط مصر، تحس أنها أقرب إلى شركائهم المسلمين في الوطن منه إلى المبشرين الأجانب الذين يشاركونهم الإيمان بالمسيح.

لقد مرّ مسيحيون في فلسطين بأطوار ديمغرافية عدّة، تقلّبوا فيها من أوضاع الجماعة الفاعلة إلى أوضاع الأقلية المهجرة، لكن ما ميّز الفلسطينيين المسيحيين منذ مطلع القرن الفائت أنهم جالية حضرية سكنت المدن، مثل يافا وحيفا والقدس، وشكّلت الغالبية في رام الله وبيت لحم والناصرة. فقد كان ١٨ بالمئة فقط منهم من المزارعين بحسب إحصاء يعود إلى العام ١٩٣١.

في محور آخر تتبّع الباحثة آثار النكبة على المسيحيين الفلسطينيين. وتعود بالمصطلح إلى المؤرّخ السوري المسيحي قسطنطين زريق الذي استوحاه لأول مرة، وذلك قبيل أحداث ١٩٤٨. فعلى إثر حصول تلك الملمّة وجدّ الفلسطينيون المتبقون أنفسهم فجأة، بعد عمليات التهجير، بدون نخبة ثقافية، وبدون قيادة سياسية، وبدون وطن. هزّ التهجير الشرائح المدنية الوسطى والميسورة من المسيحيين والمسلمين على حدّ سواء. وبحسب ما تورد الباحثة ترك فلسطين بين ٧٠٠,٠٠٠ و ٨٠٠,٠٠٠ نضر، ولم يبق في ظلّ السيطرة الإسرائيلية سوى ١٦٠,٠٠٠، مجملهم من الأوساط الريفية والبدو. وبشأن ما حاق بالمسيحيين، تروي الباحثة أن بن غوريون اتخذ قرارات خاصة وحازمة لحماية معالم مدينة الناصرة، خشية ردّة فعل العالم المسيحي، وقال كلمته المحذرة «العالم يراقب أفعالنا»، في الوقت الذي كان فيه الجيش الإسرائيلي، بقيادة موشي كرميل، يحاصر الناصرة ويتأهب لاقتحام المدينة وطرد ١٦,٠٠٠ ساكن من ضمنهم



## مدينة الليبرالية الجديدة بين الاحتواء والإقصاء جيل بينسون

سعيد بوكرامي \*

ساهمت مدن الليبرالية الجديدة في إثراء الأحياء السكنية، وارتفاع قيمة العقارات، وإخلاء السكان غير المستقرين أو غير المرغوب فيهم؛ اليوم أصبحت المدن الحديثة والتجمعات السكانية الكبرى مسرحاً لانفجار اللامساواة وعمليات الإقصاء. يحدث ذلك من أجل جذب رؤوس الأموال والسكان المرتبطين بالاقتصاد الجديد، لهذا تنهج مدن الليبرالية الجديدة سياسات صارمة وبشكل متزايد تتمثل في التسويق الحضري، ومشاريع التنمية الكبرى، والسباق على العلامات التجارية والتظاهرات الكبرى. لقد فسر العديد من المراقبين هذه الاضطرابات، التي غيرت تجربة المدينة نفسها، كنتيجة حتمية لفرض نظام أيديولوجي وسياسي واقتصادي جديد منذ الثمانينيات عند انطلاق النظام العالمي الجديد المسمى بالليبرالية الجديدة.

والاستعاضة التدريجية عن المساعدة الشخصية بالمساعدة السكنية. يعكس هذا التحول المعرفي خطاب الاختيار الفردي دون أن يؤدي، حسب قوله، إلى «ليبرالية راديكالية» (ص ٥٧). باعتبارها نظاماً من المبادئ السياسية والمعايير المهنية، تنتشر الليبرالية الجديدة كإطار للعمل العام. إنها بمثابة دليل للممارسات الروتينية لكبار المسؤولين ويبدو في فرنسا جلياً نظام الصرامة الاقتصادية وإضفاء الطابع الإقليمي على السياسات العامة منذ بداية الثمانينيات. ومع ذلك، أعرب عالم السياسة عن تحفظه في مواجهة الإقصاء التعسفي والمتسرع للكينزية في العديد من الأعمال التي أجلت الافتراض المسبق لقطعية مثالية وواضحة في مواجهة الليبرالية الجديدة.

يعود جيل بينسون في الفصل الثاني إلى العلة الغائبة بين الليبرالية الجديدة والمدن المتروبولية، مقارناً الأخيرة بـ «الأبطال النشطين» (ص ٦٢) في هذه العملية. لقد تبنت الرؤية الإدارية المتأصلة في الليبرالية الجديدة الحضرية حياة جديدة في ذخيرة العمل السياسي المحلي مما ساعد على إدراج هذا المبدأ في منطق الإدارة العامة الجديدة، ودُرس لأول مرة من منظور تخطيط المدن. ويتضح ذلك من خلال التنظيم العام للزيادة في مبادئ السوق والحوكمة من خلال المشروع الذي يعطي مكان الصدارة للتنمية الحضرية والقدرة التنافسية والجاذبية.

علاوة على ذلك، تكمن أهمية الكتاب في ترجمته لتأثيرات المدينة على الليبرالية الجديدة، باعتبارها «محيطاً ثانوياً للرأسمالية» (ص ٨١) ولراكمة الثروة. ويتمثل ذلك فيما تمنحه المدن الكبيرة من مكانة للتقارب بين الاستثمارات المالية التي تساعد على تنشيط مراكز المدن وتحرير القيود الاقتصادية. وينتهي هذا بإضفاء الطابع المالي على المدن بتخصصها المفرط مع تعميم المضاربة وتبادل الأصول المحفوفة بالمخاطر على المدى القصير؛ مما يؤدي إلى إزالة الطابع المادي عن النطاق المالي، لكن ذلك يولد أزمات اقتصادية ذات تكاليف اجتماعية مزمنة (زيادة في معدل

المذكور من غموض، فهو يعتقد أنه يوفق بين هذه التيارات الثلاث مبرراً تضييره للانتماءات والأنماط الملموسة لمدينة الليبرالية الجديدة، ومؤكداً على الطابع المتغير للبنية الاجتماعية للنيلولبرالية الحضرية. وعطفاً على ذلك يسלט المؤلف الضوء على القوة التأويلية للأعمال المهمة بذلك، ليجمع بين مقدماتها النقدية لتعميمها وجعلها أكثر فهماً. في الفصل الأول، يعود جيل بينسون إلى «التسوية الفورية» في النصف الأول من القرن العشرين، الذي عرف بسبب التناقضات الداخلية في الرأسمالية، كيف يتكيف هذا النظام الاقتصادي وفق نوع المؤسسة، وبحسب النماذج التي تخصص في بعض الأحيان (تخفيف شروط منح الائتمان في الولايات المتحدة)، وأحياناً تحت سيطرة الدولة (إنشاء وإدارة حدائق السكن الاجتماعي في فرنسا والمملكة المتحدة). إن سياسات دعم الطلب ترافقها بعد ذلك التنشئة الاجتماعية لإنتاج السلع والخدمات مع تعزيز أشكال الإشراف والمرافقة الاجتماعية، وهذا يؤدي إلى إعادة إنتاج النظام الاجتماعي. ومع ذلك، فإن تشبع الطلب العالمي وفقدان مكاسب الإنتاجية يضعفان التيار الكينزي. ويمكن العودة إلى الأزمات الاقتصادية التي أعقبت بعضها البعض في السبعينيات وما أدت إليه من توترات اجتماعية عنصرية، وعدم مساواة إقليمية، وصراعات حضرية، خاصة ضد آثار تحسين الجودة الحضرية في العمران والمرافق والخدمات. وقد اكتسب هذا الأخير الطابع المؤسسي من خلال التكتيف الحضري وإزالة المعالم الأثرية والطبيعية، مما يشير إلى أن قدرة الليبرالية الجديدة على الاستيعاب الحضري وتبديل سياستها الاجتماعية تتميز بالتعثر.

امتدت قوة النظام النيولبرالي تدريجياً إلى مجال الأنشطة العامة. تغذيها النظرية العقلانية للخيارات العامة، التي تضي الشرعية على تقليص التحويلات الوطنية المخصصة للبلديات. ويذكر الكاتب أيضاً التحولات الاجتماعية، من خلال حالات محددة لسياسات الإسكان الاجتماعي

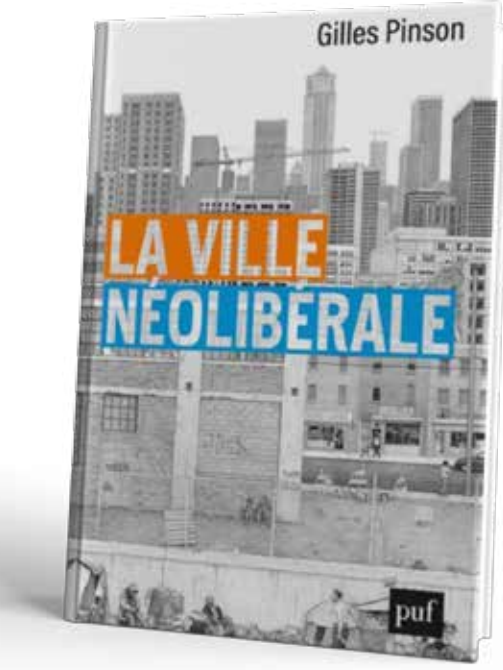
يقدم جيل بينسون دراسة تحليلية وبيداغوجية ونقدية للنظريات الحاسمة التي تجعل الليبرالية الجديدة القوة الرئيسية لتغيير المدن والسياسات. إن استخدام مصطلح «الليبرالية الجديدة» في مجال العلوم الاجتماعية حافظ على التباس متعدد وغموض دلالي. لكن الدراسة التي أنجزها جيل بينسون، عالم السياسة في مركز إميل دوركهايم، ساعد في استرداد براءة وتنوع مفهوم الليبرالية الجديدة بحسب التكوينات الوطنية والحضرية المختلفة. دون الادعاء بتقديم تعريف شامل للمفهوم، يحاول المؤلف استعادة دور الدولة في التدخل والتيسير والتحفيز للأعمال التجارية. لذلك يقدم جيل بينسون التحولات التاريخية لمدينة الليبرالية الجديدة، من خلال مواجهتها للسياسات الكينزية (نسبة إلى الاقتصادي البريطاني جون مينارد كينز) ومراحل تحيينها كنموذج مهيمن.

لا تفصل الليبرالية الجديدة عن العولمة وتفكك اقتصاد العلاقات الاجتماعية، فهي تنطلق من الآليات الدولية لنشر النظريات الاقتصادية ذات الأهداف السياسية مثل مجتمع مونت بيلران. لقد هيمن المبدأ النقدي الذي دعمه حايك وفريدمان كضلع لليبرالية الجديدة معتمداً على تداول دولي للأفكار خارج سياقها الأصلي. وإذا عدنا بإيجاز إلى نشأة الليبرالية الجديدة كأيديولوجية قائمة، فإننا نجد أنها تنقسم بحسب جيل بينسون إلى أربع تيارات تحليلية في العلوم الاجتماعية. أولها الجغرافيا الماركسية الجديدة، التي يعتبرها الكاتب طريقة للتراكم الرأسمالي وشرطاً لاستمرار سلطة طبقة النخبة. ويأتي بعدها تيار علم الاجتماع البوردوي وبراهينه التجريبية العديدة، التي تكشف عن أنماط العمل وتغلغل الليبرالية الجديدة في المجال السياسي والإداري وما عرفته من نضالات من أجل الشرعية. يستحضر المؤلف بعد ذلك وجهات نظر فوكو، التي تتخذ وجهة نظر معاكسة لأطروحة الهيمنة الليبرالية الجديدة. أخيراً، إذا كان جيل بينسون يتعامل مع الجغرافيا النقدية، التي لا يخلو تيارها



من تفكيك لرموز هذا النظام الجديد من خلال التركيز أكثر على الأطر الاقتصادية النظرية للإنتاج أكثر من التركيز على الشكل المعماري للمدن.

كما رأينا يعود الكتاب أولاً إلى الاختلافات بين الليبرالية والليبرالية العادية والليبرالية الجديدة انطلاقاً مما كتب عنها من مراجع. نذكر على سبيل المثال لا الحصر أطروحة آدم سميث وأوائل الليبراليين الذين يرون في الاحتكارات العامة والخاصة أكبر تهديد لازدهار الأنشطة الاقتصادية، بينما اعتبر الليبراليون العاديون أن السوق يجب أن يكون جزءاً لا يتجزأ من نظام سياسي أعلى يحميه من فائضه وأزماته ويحتويه في المجال الاقتصادي الشامل لسياسة الدولة، لكن الليبرالية الجديدة تجعل السوق المبدأ الأساسي لتنظيم المجتمع ويسعون إلى توسيعه لكي يشمل جميع مجالات الحياة، من التعليم إلى العدالة، من الأنشطة الثقافية إلى تلك الخاصة بالعائلة. و للقيام بذلك، وضعوا عدداً معيناً من الأدوات لتجريد الدولة وسياساتها من وسائل عملها، ولا سيما سعيها لإخراجها من السيطرة على العملة، ووضع النظام الاقتصادي فوق النظام السياسي، وللبهنة على ذلك يقدم جيل بينسون مثال اليونان والأرجنتين اللتين حاولتا مقاومة هذا الاضطهاد النقدي بإقامة نظام بديل لهذه السياسات الليبرالية الجديدة، لكنهما تعرضتا لنكسة اقتصادية وسياسية أشد وأقوى. ويتوسع وجهة نظره، يلاحظ المؤلف أن الليبرالية الجديدة لا تهتم بالنماذج الديمقراطية، كما ثبت ذلك في الشيلي منذ السبعينيات، وفي الصين وفي العديد من البلدان غير الديمقراطية الأخرى. لهذا يعبر في نهاية كتابه عن أسفه من استشراف هذه الليبرالية الجديدة بجموح عالمي، جاعلة الفصل بين الفضاءات السياسية والمالية مبدأ مقدساً، للاستمرار في المحافظة على هيمنتها المالية والتحكم في التغييرات السياسية وفق مخططاتها وتوجهاتها الاقتصادية حتى وإن حققت مآربها على حساب العدالة الاجتماعية والقيم الإنسانية والأخلاقية.



يتضح مما سبق أن مفهوم «المدينة الليبرالية الجديدة» المدينة الريادية» قد تحول إلى قوة جذب للموارد والوظائف ورأس المال والابتكارات. منذ مطلع السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، صارت المدينة الليبرالية الجديدة موجهة نحو العرض وتميل ميلاً إلى استبدال المدينة الكينزية الموجهة نحو الطلب. وبذلك يؤدي سياق تحرير المبادلات التجارية إلى اشتداد المنافسة بين المدن، بحيث تسعى كل مدينة إلى جذب الشركات والطبقات الاجتماعية المتميزة. في الوقت نفسه، تترك السياسات الحضرية مكاناً متزايداً للجهات الفاعلة الخاصة. مما يؤدي إلى التهديد بفقدان الوظائف، وفسخ الارتباطات والالتزامات وهروب رأس المال، وحتمية تخفيض الميزانية في بيئة تنافسية، وهذا يمثل صفقة جديدة في توجيه السياسات الحضرية، التي تتخلى عن مبادئ الإنصاف والعدالة الاجتماعية لصالح الكفاءة والابتكار ومعدلات الاستغلال الحقيقية.

تتبع هذه التعديلات في الفضاء الحضري من خلال تجديد مراكز المدن، وإعادة تحويل / استعادة المساحات الصناعية القديمة. ومن خلال تركيز الاستثمارات في عدد قليل من المناطق المختارة بعناية، تساهم هذه السياسات الحضرية في التجزئة الاجتماعية - المكانية للمدن الكبرى المعاصرة. ومع ذلك، من سياق وطني إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى، يتم التعبير عن اختلافات ملحوظة في الأهمية التي توليها السياسات الحضرية لأهداف القدرة التنافسية وأهداف الإنصاف والعدالة الاجتماعية.

لقد غيرت الليبرالية الجديدة بشكل عميق طريقة عيش سكان المدن والإنشاءات والمجالات السكنية الكبيرة منذ عقود. لم يكن الانتقال من المجتمع الفوردي والكينزي إلى عالم تحت تأثير ميلتون فريدمان ورجال المال والأعمال بلا تأثير على البيئة العيشية. وهنا تكمن أهمية ما قام به جيل بينسون

الجهد ورفع الحيازة عن أسر الطبقة العاملة، والإفراط في مديونية التدبير المنزلي). في فرنسا مثلاً، أصبحت هذه الدينامية التنافسية الحضرية أكثر وضوحاً في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، من خلال إنشاء التجمعات واستخدام أدوات العمل العامة في المنافسة، بما في ذلك صياغة طلبات لمشاريع التنمية. وعلى الرغم من انسحابها من المستوى المحلي، فإن الدولة «تتحكم عن بعد» وتوجه استراتيجياً تمويل المجتمعات من أجل تشجيعها على تقليص عجزها وزيادة استقلاليتها.

أخيراً، يتساءل المؤلف في الفصل الثالث عن «التجاوزات غير الليبرالية» (ص 103) لليبرالية الجديدة فيما يتعلق بإرغاماتها الناعمة وأشكالها القمعية. وهنا يعود إلى الأعمال المتسائلة عن الطبيعة المناهضة للديمقراطية والليبرالية الجديدة للمجالات الحضرية وما يتعلق بغموض مشاهد التجديد الحضري وتقنياتها. في الواقع، يبدو أن هذا المنطق الريادي يستبعد الخلافات والانقسامات السياسية من أجل خرق الحس التجاري، ومن هنا يحدد «الإجماع ما بعد السياسي» الذي يبعد الطابع السياسي عن صناعة مدينة الليبرالية الجديدة. وبذلك، يكشف المؤلف عن حدود المقاربات النقدية لليبرالية الجديدة، من حيث أنها تؤدي عموماً إلى تمجيد الأنظمة السياسية الديمقراطية السابقة وتقليص هيئات الحوكمة الحضرية للمدن الكبرى وجعلها فضاء وملاذاً للرأسمالية الجديدة.

بالإضافة إلى ذلك، يفحص جيل بينسون تأثيرات الليبرالية الجديدة ومنطق الاختيار الاجتماعي والغزو الرمزي للمدن. كمصدر ل«أوامر ريادة الأعمال» (ص 125) ولأخلاق التعاقدات الجديدة، تعزز الليبرالية الجديدة الحضرية المسؤولية الفردية من خلال حجب المحددات الهيكلية للتغيير السلوكي. هذه التقنية لحوكمة الليبرالية الجديدة تساهم بمكر في تكييف الموارد حسب الجدارة وزيادة مراقبة الفئات المحرومة، كنوع من التنبيه إلى أحقيتها في تجريم الفقر. وهذا ما يؤدي إلى تفاقم الوصم والتنافس بين أفراد الطبقة العاملة، كما يتجذر ذلك في استغلال الإثنية والهوية في مشاريعها المهيمنة.

في النهاية، يقدم كتاب جيل بينسون تحليلاً شاملاً حول العمل النقدي متعدد التخصصات الذي يهدف إلى دراسة موضوع مدينة الليبرالية الجديدة خارج المجال الأكاديمي والفكري. ومع ذلك، فإنه يشير إلى بعض العثرات، مثل التنبيه إلى دراسة هذه الحقيقة الاجتماعية، وإزاحة غموض تعريفها حسب «قدرتها المطلقة» (ص 142)، وإبراز تناقضاتها بين هيئات السوق والمنطق المناهض إلى تحيزها السلبي، مستهدياً بالحصافة التحليلية. مستعيناً بالمراجع الضرورية، يقدم المؤلف عملاً واضحاً ومختصراً في تناول القارئ المهتم بالليبرالية الجديدة وتخطيطاتها العمرانية والاقتصادية والسياسية.

• الكتاب: مدينة الليبرالية الجديدة

• المؤلف: جيل بينسون

• الناشر: منشورات بيف. باريس.

فرنسا

• سنة النشر: 2020

• عدد الصفحات: 160 ص اللغة

الفرنسية.

\* كاتب ومترجم مغربي



## إمبراطوريات الضعفاء: القصة الحقيقية للتوسع الأوروبي وخلق النظام العالمي الجديد جي سي شارمان

محمد السالمي \*

ما الذي يضر قيام الدولة، وهيمنة الغرب؟ قبل قرون كانت أوروبا راکدة. لم تكن هناك مدن كبرى باستثناء قرطبة المسلمة في إسبانيا وبقايا من روما وأثينا. كان الشرق الأوسط والهند والصين في المقدمة. لقد كان العرب هم الذين أبقوا على قيد الحياة تعاليم الإغريق القدماء في العلوم والطب والعمارة والفلسفة. ولكن بحلول عام ١٩١٤ كان الأوروبيون يحكمون السيطرة على أكثر من ثلثي الكرة الأرضية، كيف فعلوا ذلك؟

المثال، كان بيثارو، الذي غزا الإنكا، يملك جيشاً قوامه ١٧٠ فقط. لاريب، أن لدى بيثارو أسلحة لم تكن تمتلكها الإنكا، لكنها كانت مجرد عدد قليل من المدافع والبنادق الأساسية. أما في إفريقيا، فقد أقدم الغزاة الإمبرياليون على شراء العبيد من الزعماء المحليين. كانت عمليات التوغل في الداخل عندما حدثت لاحقاً تمثلت مع مجموعات صغيرة من الجنود، وكانت الاشتباكات باليد.

يجادل شارمان بأنه باستثناء الأمريكتين، لم يكتب الأوروبيون تفوقاً عسكرياً خلال فترة التوسع الأوروبي من القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر. لا يجب التقليل من التوسع الأوروبي الناجح خلال هذه الحقبة، فالتفوق البحري الذي تم تحقيقه كون الأنظمة الساسية في الشرق تمركزت قواتها على اليابسة و كانت غير مبالية إلى حد كبير للحرب والتجارة في البحر. ويذكر التاريخ قيام أميرال صيني ذات مرة بقيادة رحلة تفقدية إلى إفريقيا لكنه تجاهلها بعد ذلك.

ويشير الكاتب إلى أن الأوروبيين لم يرسلوا إلى الخارج الجيوش الكبيرة كالتي استخدموها في أوروبا. قادت مجموعات صغيرة من المغامرين والقوات الاستكشافية والشركات الخاصة المستأجرة التي اعتمدت على دعم الحلفاء المحليين للتوسع. لم تستطع أوروبا مجاراة انتشار الإمبراطوريات الآسيوية مثل العثمانيين في الشرق الأدنى، والمغول في جنوب آسيا، ومانشو كينغ في الصين. في الوقت الذي بدأت فيه أوروبا عهد استكشافاتها، كانت الإمبراطوريات الصينية والمغولية أكثر تطوراً من

هزائم أكثر من انتصارات ضد قوى غير غربية على مدى نصف القرن الماضي. كما يؤكد شارمان، أنه منذ عصر التنوير إلى الحرب العالمية الثانية، تمثل هذه حقبة تاريخية وقد انتهت. وربما الأهم من ذلك، أننا نبدو اليوم على أعتاب العودة إلى حالة أكثر انتظاماً، حيث ستصبح الدول الكبرى في آسيا مرة أخرى القوة المهيمنة في العالم.

يفسر الكاتب، أن الفترة الحديثة المبكرة والتي يرجع تاريخها تقليدياً من ١٥٠٠ إلى ١٨٠٠، كانت الأكثر فائدة للتأمل في رسم المسارات التي سنسلكها. في تلك القرون، كانت إمبراطوريات الشرق مثل: تشينغ والعثمانيين والمغول أكثر الدول رعباً على وجه الأرض، وكانت تسيطر على أغلب الأراضي.

في جزء كبير من هذا الكتاب يعتمد الكاتب في هدم نظرية «الثورة العسكرية»، والفكرة القائلة بأن التقنيات العسكرية المتقدمة أدت إلى هيمنة أوروبا على العالم بدءاً من عام ١٥٠٠م. يوضح شارمان أن هذا غير صحيح، حيث يشير إلى أن الإمبراطوريات الضخمة في آسيا لم تهتم كثيراً بسواحلها مما أدى بالأوروبيين لضم شواطئهم. حتى عام ١٧٥٠م تقريباً، لم يكن للأوروبيين، حتى في أوروبا، أي ميزة عسكرية على القوى الأخرى، وخاصة العثمانيين. يذكر الكتاب العديد من الأحداث التاريخية البارزة، حيث لم ينجح التفوق التقني العسكري من حسم المواجهة.

في أمريكا اللاتينية، الذين أقدموا على الغزو، لم ينتصروا بسبب التكنولوجيا العسكرية المتطورة، ولكن عن طريق التحالفات مع الممالك المحلية الصغيرة وانتشار الأمراض الأوروبية. على سبيل

تؤكد الإجابة التقليدية أن التكنولوجيا الفائقة، والمؤسسات التي صاغت المناقشة العسكرية هي التي أعطت الأوروبيين ميزة حاسمة في الحرب على الحضارات الأخرى منذ عام ١٥٠٠ فصاعداً. في المقابل، يسجل التاريخ بأن الأوروبيين في الواقع لم يكن لديهم تفوق عسكري كلي في أوائل العصر الحديث على الإمبراطوريات الأخرى. يوضح جي سي شارمان في هذا الكتاب، أن التوسع الأوروبي من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر يتمثل في مراعاة الأنظمة السياسية القوية في آسيا وإفريقيا، بالإضافة إلى التفوق البحري المكتسب افتراضياً لكون قوى الأنظمة السياسية الأخرى متمركزة نحو اليابسة وكانت غير مبالية إلى حد كبير بالحرب والتجارة في البحر.

وللتعريف بالكاتب، فجي سي شارمان هو أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كامبريدج، كما شغل رئاسة قسم السياسة و الدراسات الدولية بنفس الجامعة. تتمحور اهتمامات شارمان البحثية في دراسة الفساد الدولي وغسيل الأموال والملاذات الضريبية، إلى السياسات العالمية للعالم الحديث. أين تنتهي قصة التوسع الأوروبي وخلق النظام العالمي الجديد؟ بالنسبة للمؤرخين، يمكن للإجابة على هذا السؤال غالباً عبر طريقة تفسيرهم للماضي. تشير معظم كتب التاريخ في القرن العشرين إلى أن أوروبا «فازت» بتاريخ العالم. لكن من منظور اليوم، يبدو أن هذا الادعاء يصعب الدفاع عنه. يرى شارمان أن الأوروبيين لم ينتصروا في النهاية، حيث سقطت إمبراطورياتهم، وتضاءلت قدرتهم العسكرية. حتى الولايات المتحدة شهدت





الغربية لإثراء العلوم في فهم العلاقات الدولية. كما تظهر الهيمنة الغربية على النظام الدولي الحديث بشكل كبير، وبالتالي يجعل الأمر أقل إثارة للدهشة إذا كانت هذه الهيمنة موجودة الآن، وإلى أي مدى تستطيع القوى الخارجية مجابهة هيمنة الغرب. كما يكشف الكاتب أيضاً عن العديد من الظروف التاريخية التي نادراً ما تمت مناقشتها حتى الآن، مثل الدور الذي لعبه الدين في بناء الإمبراطورية الحديثة. كما يبرز أن جميع الأسلحة كانت مستخدمة طواعية، حيث اخترعت الصين البارود في البداية، و صنع العثمانيون أسلحة بكثرة. ومع ذلك، بحلول عام 1700م كل تلك الإمبراطوريات تعتمد بشدة على الذخيرة الغربية.

في الختام، يتحدث كتاب «إمبراطوريات الضعفاء» الروايات التقليدية في العلاقات الدولية. يعتمد تحليل جي سي شارمان الحاد والثاقب على المعرفة التاريخية لتقديم فهم جديد للنظام العالمي المعاصر ورؤية جديدة مقنعة للمستقبل. هذه دراسة مضيئة ومقنعة للسياسة العالمية. كما أثار هذا الكتاب الجدل من منطلقاته، وخاصة في تفسير هيمنة الغرب، حيث ينظر النقاد إلى أن العدد الصغير نسبياً من الصفحات التي خصصها شارمان في الكتاب قابلة للدحض. تم إنفاق العديد من هذه الصفحات في تفكيك «أطروحة الثورة العسكرية». في المقابل، يضع كتاب شارمان نقاشاً حقيقياً على الساحة الأكاديمية، والنظر للتاريخ من زوايا مختلفة.

• اسم الكتاب: إمبراطوريات الضعفاء:

القصة الحقيقية للتوسع الأوروبي

وخلق النظام العالمي الجديد

• المؤلف: J C Sharman

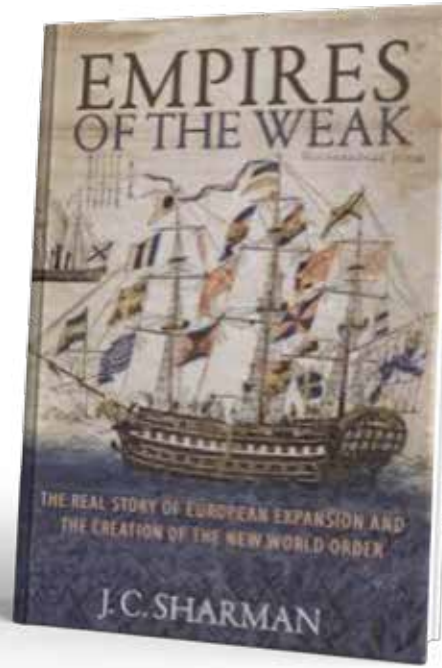
• الناشر: Princeton University Press

• سنة النشر: 2019

• اللغة: الإنجليزية

• عدد الصفحات: 216 صفحة

\* كاتب عماني



لرشوة أو محاصرة موائلهم. في بعض الأحيان، أدى انتشار الأمراض المعدية إلى القيام بهذا العمل. ومع ذلك، في عصر يبدو فيه أن المنافسة بين القوى العظمى في تصاعد، يذكر هذا الكتاب القراء بأن القليل من الدول الحديثة، إن وجدت، كانت قوية بما يكفي للسيطرة على كل من حولها من خلال القوة الغاشمة وحدها.

أدى الصعود المستمر للصين والعديد من الدول النامية في القرن الحادي والعشرين إلى إعادة وضع القصة التقليدية للاستثنائية الأوروبية جانباً. إنه يدعو إلى إعادة تقييم بعض اللحظات التاريخية المهمشة. في الواقع، لماذا يجب أن نفترض أن الحروب المتكررة هي وضع مرغوب فيه، حيث تقدم الصين والهند أحداث تاريخية مهمة لمفهوم الحداثة. حتى مع أفضل الأسلحة، لم يفز الأوروبيون دائماً في جبهة المعركة. وربما يضيف شارمان أن تلك القوى غير الغربية التي سعت إلى محاكاة الغرب في الحروب جعلوا أنفسهم في بعض الأحيان أكثر عرضة للخطر. كانت فيتنام، الأقل شأنًا من الناحية التكنولوجية، قادرة على هزيمة الولايات المتحدة القوية في القرن الـ 20. وبهذا المعنى، فإن شارمان يحذر بشأن ملاءمة التكنولوجيا لتبدو الظروف المحلية مبررة. ومن جهة أخرى، صُغت العديد من الدراسات التاريخية السابقة بالبعد العرقي والوطني. وبالتالي، يدعو شارمان لمزيد من التطلع للدراسات التاريخية غير

الناحية الاقتصادية من أوروبا. يؤكد شارمان: «بشكل عام، كان الأوروبيون واقعيين لأنهم لم يحظوا بفرصة كبيرة لمنافسة الأعداء في ميدانهم، ولذلك خضع الأوروبيون لسلطة الإمبراطوريات الآسيوية.

فقط مع ظهور الثورة الصناعية، بدأت أوروبا في عام 1760م في التفوق على الإمبراطوريتين الآسيوية والعثمانية وهزيمتها. دفعت المنافسة بين دول أوروبا لغزو إفريقيا، باستثناء إثيوبيا المسيحية.

حتى القرن التاسع عشر، لم تكن أوروبا تهيمن حقاً على إفريقيا أو آسيا، لكنها هيمنت على البحار والمواني، وقد سمح هذا للقوى الغربية بوهم الهيمنة. لم تكن القوات العسكرية في الغرب هي الجيوش الكبيرة التي طُرحت في نظريات «الثورة العسكرية». كانت بدلاً من ذلك قوات استكشافية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقوى البحرية للإمدادات والتعزيزات ودعم المدفعية البحرية. في النهاية، تمكن الغرب من الهيمنة على آسيا وإفريقيا. يقول شارمان إنها ليست مجرد «ثورة عسكرية»، لقد كانت الجيوش لا تزال تجريبية ولم تكن المقاومة العسكرية موجودة إلى حد كبير. لقد كانت تكنولوجيا الثورة الصناعية فقط هي التي وضعت الأسس (العسكرية، والاتصالات، والتكنولوجيا اللوجستية) في أسرع الغرب.

ولكن كيف يمكن تفسير الحقيقة التي لا يمكن إنكارها وهي أن الأوروبيين سيطروا على العالم منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى؟ يفسر شارمان أنه كان مزيجاً من الانقسامات الداخلية داخل الإمبراطوريتين تشينغ والعثمانية، فضلاً عن ميل الأوروبيين إلى الاعتقاد بأن بناء الإمبراطورية كان الطريق إلى السيادة الوطنية. لم تكن الإمبريالية التي من خلالها سيطرت فرنسا وإسبانيا والمملكة المتحدة ودول أوروبية أخرى على العالم مجرد وظيفة للتكنولوجيا العسكرية المتفوقة أو القوة البحرية أو التنظيم الإداري. نادراً ما كان الأوروبيون في وضع يسمح لهم بالسيطرة على العالم فقط من خلال قوتهم العسكرية. وبدلاً من ذلك، قاموا باحتواء النخب الأجنبية بمهارة من خلال التجارة معهم، وتوظيفهم كمرتزقة، ودعمهم في كفاحهم ضد الأعداء المحليين، وإذا فشل كل شيء آخر، يتم اللجوء



## "دبلوماسية الملكيت" لودميلا بودرينا

### فيكتوريا زاريتوفيسكايا \*

تشكل القطع التذكارية ذات المستوى الفني الرفيع، والمصنوعة من الحجر الملون، والتي تنتج بطلب خاص من قبل الدواوين الملكية، رمزيةً تقليديةً لمكانة الممالك الأوروبية منذ القدم. إن دوقات ميديشي، والإمبراطور رودولف الثاني الذي ينتمي لعائلة هابسبورج، ولويس الرابع عشر، كلهم أقاموا ورشاً لنحت الأحجار الملونة، وهناك شخصيات مرموقة اشتهرت بجمع هذه التحف وتشكيل مجموعات متكاملة منها مثل أمير ساكسونيا، أغسطس القوي، والكاردينال مازارين. وبالنسبة لروسيا، فقد نشأ الاهتمام بالحجر الطبيعي في عهد القيصر بطرس الأكبر. ومهما كان تاريخ نشوء هذا الفن متأخراً في روسيا، إلا أنه بلغ مع الروس ذروته الكبرى. وقد جرى افتتاح أول ورشة في عام ١٧٢١ في منطقة بيترهوف - المقر الصيفي للإمبراطور، وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر تم إنتاج الأعمال الفنية من الحجر الملون المحلي في ثلاثة مصانع إمبراطورية، اثنان منها في جبال الأورال، حيث تُستخرج أثمان الأحجار من باطن الأرض. وليس من المصادفة أن يتزامن ازدهار هذا الفن في الفترة التي شهدت فيها روسيا تحرير الفلاحين في عام ١٨٦١، حيث عرفت المشاريع ارتفاعاً ملحوظاً، شملت قطاع التحف الفنية كذلك.

المزهريات والأوعية وأسطح المكاتب وغيرها من القطع المصنوعة بالحجر الروسي، كانت تقدم كهدايا في مراسيم إبرام العقود بين الملوك والوزراء والسفراء، وأيضاً كلفتة امتنان للرسميين والمصرفيين والعلماء والفنانين من قبل القيصرية الروس. وقد تم توزيع العديد من المنحوتات من اليشب والرودونيت والملكيت واللأزورد وأحجار الزينة الأخرى بين العواصم الأجنبية والقصور الملكية والممتلكات الأرستقراطية. وبداية من النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان يجري دائماً اختيار التماثيل الحجرية الرفيعة من مخازن القصر أو يتم شراؤها خصيصاً قبل الرحلات الخارجية للقيصرية والإمبراطورات والدوقات باعتبارها هدايا غالية الثمن وذات رمزية عالية، الأمر الذي عزز العلاقات بين الأسر الملكية الروسية وأسر الممالك الأخرى. وفي محاولتهم لجعل هذه الهدايا سمة إلزامية للدبلوماسية الروسية، وجعل التذكارات القادمة من بلاد القياصرة تسطع في أروقة القصور الأوروبية، ومكاتب السفراء والقناصل، كان الأباطرة الروس يواصلون تقاليد أسلافهم الأوروبيين أنفسهم؛ فنرى أن عائلة آل ميديشي الملكية قد حولوا الأواني الحجرية المنحوتة وطاولات الفسيفساء إلى سمة مميزة لفلورنسا، ونفذ لويس الرابع عشر برنامجاً لتعزيز ثروة فرنسا بمساعدة الرخام الملون في فرساي. وجاءت فهرسة الكتاب وفقاً للدول التي كانت ترتبط بعلاقات مع الإمبراطورية الروسية، سواء حسب الخريطة السياسية القديمة، أو الخريطة التي

مزيج تختلط فيه الدبلوماسية بالفن الرفيع. وتستعرض الباحثة تاريخ القطع الفنية الروسية المصنوعة من الأحجار الملونة ومدى انتشارها في مختلف أرجاء المعمورة. كما تورد الدور الكبير الذي لعبته هذه التحف في المناورات الدبلوماسية في القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين. وتشير المؤلفة إلى الأسباب التي دفعتها إلى تأليف كتابها بقولها: «حينما نسرد لزوار متحفنا تقاليد معالجة الأحجار الملونة والتي تمتد لثلاثمائة عام، ونحدثهم عن أساتذة بارزين، وعن قطع تاريخية تزهو بجمال نادر، نقول لهم كل ذلك ونحن نقف أمام واجهات شبه فارغة، لا نجد فيها الزوار ما يشبع فضولهم، ما يجعل الأمر غريباً عليهم. لذلك فإننا نواجه أسئلة كثيرة تتعلق بمتى وكيف ولماذا تم إرسال أعمال الفنانين الروس إلى الخارج». وانطلاقاً من هذا الهدف، جاءت فكرة تأليف الكتاب الذي لا يضم مجموعة من الحقائق والأوصاف التاريخية للأعمال الفنية وحسب، بل يتتبع أيضاً تاريخ التحف الفنية التي أصبحت بمثابة سفراء للثقافة الروسية، والتي بفضلها يستمر حتى اليوم التحدث عن روسيا وتراثها وثرواتها. ويرتبط تاريخ فن تقطيع الأحجار الروسي، حيث العديد من صفحاته المشرقة ينتمي لمدينة يكاترينبرج وجبال الأورال، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلاقات الدبلوماسية للإمبراطورية الروسية. فمع نهاية عهد الإمبراطورة يكاترين الثانية وحتى عشية ثورة ١٩١٧، أي قرابة قرن ونصف، كانت

ومن بين إنجازات النحاتين الروس آنذاك: إنشاءهم قاعة الملكيت في قصر الشتاء بمدينة سانت بطرسبرج المعروفة باسم: غرفة الرسم الذهبية للإمبراطورة، وقاعة يكاثرين في قصر الكرملين الكبير في موسكو. أما أروع ما تم إنجازه فكان في النصف الثاني من أربعينيات القرن التاسع عشر حيث قامت المصانع الروسية بتوفير المنحوتات الحجرية لتزيين كتدراية القديس إسحق في مدينة سانت بطرسبورج، عاصمة روسيا وقتذاك. وفي بداية القرن العشرين احتل حجر الأورال مكانة مرموقة ضمن تشكيلة شركات سانت بطرسبورج. وقد توسع الطلب نتاجها الخاص بتلك الأحجار الملونة. وقد توسع الطلب على تحف الحجرية الروسية ليشمل المتاجر الباريسية المرموقة، مثل متجر كارتيه، وذلك إلى جانب ما يطلبه البلاط الإمبراطوري الروسي باعتباره المستهدف الرئيسي لهذه الصناعة.

إن الحديث عن هذا النوع من الفنون والبحث في تاريخه شيقٌ وجدير بالاهتمام بحد ذاته، ولكن ما وضعته الباحثة الروسية، والمشرقة العلمية على متحف يكاتيرينبورج، لودميلا بودرينا، في كتابها «دبلوماسية الملكيت» أكثر شمولاً من مجرد بحث تاريخي، أو وصف جمالي للأحجار الكريمة، حيث ربطت هذا الفن، أي صناعة حجر الملكيت، بالتاريخ السياسي الروسي وأدخلته ضمن دبلوماسية البلاط الإمبراطوري في تعامله مع مختلف الأحداث والظروف. بكلمة أخرى، فالكتاب الذي بين أيدينا هو



الفارسي مذكراته عن هذه الرحلة، وتُرجمت إلى الإنجليزية عام ١٨٧٤ وبعد ذلك إلى الروسية عام ١٨٨٩. ومن بين الملاحظات المتعلقة بإقامته في سانت بطرسبرج نجد سطوراً مخصصة لزيارته إلى المتحف الإمبراطوري: «ذهبنا إلى الأرميتاج. وتم تقديم مديرها إلينا، حيث أظهر لنا الكثير من مقتنيات المتحف، فهناك القاعات المليئة باللوحات والمنحوتات الرخامية والأوعية الكبيرة والصغيرة المصنوعة من أحجار سيبيريا وطاولات مزينة بفسيفساء حجرية ملونة وطاولات ومزهريات مصنوعة من الملكيت وهو حجر سيبييري خالص، والعديد من الأشياء الأخرى التي وجدناها جميلة ومميزة».

وبالتالي؛ فقد جاءت النتيجة لهذه الاستقبالات المدروسة لصالح الروس، حيث أُحيل جزء من امتيازات بناء السكك الحديدية في بلاد فارس إلى المقاولين الروس. أما الاهتمام الذي أبداه الحاكم الفارسي بالكنوز الحجرية في القصور الإمبراطورية فقد أسفر عن إرسال هدية رمزية إلى طهران وهي عبارة عن إناء من الملكيت هدية للشاه الفارسي. وبشكل هذا الإناء الزوج الثاني من تشكيلة واحدة، كان جزؤها الأول قد أرسل إلى إنجلترا كهدية للبارون روتشيلد في عام ١٨٧٢.

ومن غير الواضح سبب تجاهل المؤلفة للشرق العربي، وهل هو ناتج عن قصور موضوعي أم غير ذلك. فكل ما جاءت به المؤلفة في هذا السياق يقتصر على: «أداة كتابة مصنوعة من يشب مدينة أورسك، وهي من إنتاج مصنع يكاتيرينبورج، قدمتها الإمبراطورة ماريا فيدروفنا هدية لجواهري فرنسي، ثم انتقلت إلى الملك المغربي الحسن الثاني ومنه إلى الرئيس الأمريكي جيمي كارتر وهي اليوم محفوظة في متحف مركز الرئيس كارتر في أتلانتا» (ص: ١٧٩).

.. **الكتاب: «دبلوماسية الملكيت».**

.. **المؤلف: لودميلا بوردينا.**

.. **الناشر: كابينييتي أوتشيني/ موسكو-**

**يكاتيرينبورغ، 2020، بالروسية.**

.. **عدد الصفحات: 208 صفحات.**

\* أكاديمية ومستعربة روسية



طهران باقتراح جديد. حاول رجل الأعمال الألماني هذا، الناجح والحاصل على لقب النبالة والجنسية البريطانية، استمالة الشاه ووزرائه إلى التعاون مع التاج البريطاني لتنفيذ هذا المشروع، كما لفت انتباههم إلى الأرباح المتوقعة منه. في واقع الأمر، فقد كان إنشاء خط سكة حديد يربط بين سواحل بحر قزوين والخليج العربي في مصلحة بريطانيا، ولكنه، في الوقت نفسه، كان مصدر صداع وسخط في سانت بطرسبرج، عاصمة روسيا القيصرية. الخلاصة أن الشاه، وخلال رحلة قام بها إلى أوروبا عام ١٨٧٣ والتي بدأها من بطرسبورغ، ونتيجة للمباحثات التي أجراها في قصورها، انتقل التوكيل لبناء السكك الحديدية في إيران إلى رجال الأعمال الروس.

ففي ربيع ذلك العام، دشّن الشاه نصر الدين رحلته الأولى إلى أوروبا بزيارة المدن الروسية. كان الغرض من الرحلة أن يتعرف الشاه بصورة مباشرة على عادات البلدان الأخرى. غير أن رحلته لم تخل من الطابع السياسي. وكما أشارت الصحف الروسية في ذلك الوقت بأنه «لا يمكن فهم حقيقة هذه الرحلة دون ربطها بالحركة المتنامية لآسيا نحو أوروبا، والتي تزداد حدتها عاما بعد آخر».

وقد تميزت زيارة الشاه لعاصمة الإمبراطورية الروسية باستقبالات خاصة ومراسم حافلة، حيث صممت حفلات الاستقبال، والسهرات، والعروض العسكرية، وتنظيم الرحلات إلى المقرات القيصرية الريفية لإثارة إعجاب الضيف المميز. وقد كتب الشاه

نعرفها اليوم، وذلك مع سرد مُعمّق عن طبيعة تلك العلاقات.

من بين المباحث المهمة والمعقدة التي تصدت لها الباحثة في كتابها، هناك بحثها في الظروف التي غادرت فيها أربعمئة قطعة فنية الحدود الروسية، حيث قامت باستقصاء دقيق لرحلة هذه القطع وأماكن تخزينها وقدمت لها تقييماً ونقداً فنياً، وبذلك أعادت إلى دائرة الأعمال العلمية المدروسة. ولم تكتفي الباحثة بالإرشيف الروسي مرجعاً لها، بل قامت بدراسة أعمال المؤلفين الأجانب، ودوريات بيوت المزايدات، ومجموعات المتاحف من مختلف دول العالم، إلى جانب المجموعات الفنية الخاصة من أوروبا وآسيا وأمريكا، باستثناء الشرق الأوسط الذي يبقى ثغرة في هذا الكتاب.

وقد أفردت الكاتبة لحجر الملكيت مكانة مركزية في كتابها باعتباره الأكثر شهرة، ويشكل رمزاً للرفاهية الروسية، ولكنها لم تهمل الكاتبة ذكر أحجار أخرى كاليشب والرودونيت واللأزورد.

وفيما يخص الدول الشرقية، هناك بعض الصفحات التي أتت على ذكر الهدايا الدبلوماسية التي خصصت لحكام إيران، ومنها هذه الأسطر: «يثير عدم الاستقرار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قلقاً كبيراً لدى البريطانيين الذين رأوا في تعزيز الوجود الروسي في المنطقة تهديداً مباشراً لمصالحهم. وقد اشتهر هذا التوتر خاصة في نهاية الربع الثالث من القرن التاسع عشر. ووفقاً للمحللين، فخلال جيل واحد فقط، قفزت روسيا فوق القوقاز، وعززت من نفوذها في بلاد فارس، ورسخت تواجدتها على حدود الهند البريطانية. ولأن الدولتين لم ترغبا في الدخول في مواجهة مسلحة، حاولت بريطانيا وروسيا تأمين نفوذهما من خلال تقديم تنازلاتهما فيما يتعلق بالاقتصاد الإيراني، الذي كان بحاجة إلى مشاريع استثمارية واستراتيجية كثيرة، يأتي في مقدمتها تطوير طرق النقل الإيرانية وتطوير رواسب الموارد المعدنية».

إن حكومة شاه ناصر الدين، التي كانت مهمتها بتعزيز خزينة الدولة، والمناورة بين رواد الأعمال وذلك في محاولة للعثور على عروض أكثر ملاءمة، وتأجيل الالتزامات التي تقع على عاتق الدولة، بدأت في عام ١٨٦٤ مفاوضات حول بناء شبكة سكك حديدية في إيران. لم تتوج المحاولة الأولى بالنجاح وفي عام ١٨٧١ وصل البارون جولوس دي رويتر إلى



## "مخيلة الأسد".. تشكل الهوية الوطنية من خلال الإعلام في بلاد الفلمنك غيرتيان ويليمس وبرونو دي ويفير

عبدالرحمن السليمان \*

تتكوّن مملكة بلجيكا الاتحادية من ثلاث مقاطعات: مقاطعة الفلمنك الناطقة بالهولندية، ومقاطعة والونيا الناطقة بالفرنسية ومقاطعة أوبن الناطقة بالألمانية. ويشكل الفلمنكيون (٦,٥٨٩,٠٠٠ نسمة) أكبر مجموعة سكانية في بلجيكا، يليهم الوالونيون (٣,٦٣٤,٠٠٠ نسمة)، ثم سكان مقاطعة أوبن الألمان (١٩,٧٦٢ نسمة). وتشكل مدينة بروكسيل مقاطعة خاصة ذات لغتين رسميتين هما الهولندية والفرنسية. ويعالج هذا الكتاب، الذي حرره كاتبان متخصصان في تاريخ الحركة القومية الفلمنكية، موضوع الهوية الوطنية وتشكلها بناء على عناصر جامعة أهمها في سياق الحركة القومية الفلمنكية: اللغة الهولندية ودور الإعلام والفنون والآداب في ترسيخها والتمكين لها.

فألغة -بموروثها الأدبي والثقافي- عامل من العوامل الثلاثة التي تشكل الهوية الوطنية لأية أمة. فالحركات القومية في العالم مؤسسة إما على اللغة (كالقومية العربية)، أو على الدين (كالقومية الإيرلندية) أو على العرق (كالقومية النازية) أو على العرق والدين معاً (كالصهيونية). وغالباً ما تختار مجموعة من الناس شكل قوميتهم بالتضاد مع ما يعتبرونه حالة تهديد لوجودهم. فالقومية الإيرلندية ارتأت في الديانة الكاثوليكية عاملاً جامعاً للإيرلنديين الكاثوليك بمواجهة الإيرلنديين البروتستانت. واختارت المجموعة البيضاء في جنوب إفريقيا نظام الأبارتيد لمواجهة محيطهم الإفريقي.

الفلمنكي الجديد» بارت دي ويفير. وينطلق الكتاب من الإشارة إلى «القانون الفلمنكي» الذي اقترحه سنة ٢٠٢٠ الحكومة الفلمنكية عند بدء ممارسة مهامها، وهو «محفظة مكوّنة من العناصر والقيم الثقافية المشتركة المكوّنة للهوية الفلمنكية والمعبرة عنها»؛ ذلك لأنّ هذه الحكومة التي يقودها القوميون الفلمنكيون ترى أن «الوطن إنما ينبغي تمثيله في الواقع وترجمة عناصره وقيمه المشتركة إلى شيء مرئي ومحسوس يوحد ولا يفرق». ومن هنا، يأتي دور الإعلام في حشد مجموعة من الناس حول مجموعة من القيم المشتركة لتشكل الهوية وترسيخها وتطويرها. فعندما تأسست مملكة بلجيكا سنة ١٨٣٠ أسهم المؤرخون والأدباء والموسيقيون والنحاتون وسائر الفنانين في تشكيل الهوية البلجيكية وتجسيدها. أثناء ذلك نشأت الحركة القومية الفلمنكية نتيجة لتهميش الفلمنكيين ولغتهم الوطنية في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، «فانبتق» عن هذه الحركة القومية الفلمنكية «مشروع تشكيل وطن فلمنكي مواءم لمشروع الوطن البلجيكي وموجه ضده». لقد تطور هذا المشروع كثيراً، وتمكّن بفضل الازدهار الاقتصادي الكبير لبلاد الفلمنك لسكانه الذين استطاعوا تحصيل كامل استحقاقاتهم الثقافية وفرض أجندتهم السياسية على السياسة الاتحادية لبلجيكا بأساليب ناعمة. لذلك وجهت الحكومة الفلمنكية الجديدة الدعوة إلى المؤرخين لجرد أهم العناصر والقيم الثقافية المشتركة المكوّنة للهوية الفلمنكية، وكذلك إلى هيئة الإذاعة والتلفزيون ومنتجي الأفلام وصناديق دعم الآداب لترجمة العناصر والقيم الثقافية المشتركة إلى واقع يرسخ الهوية الفلمنكية وينشرها.

وإذا كان تبلور الهوية الوطنية الفلمنكية في الفترة الممتدة من ١٨٣٠ حتى ١٩١٤ جاء ردة فعل على الهوية الوطنية البلجيكية بلغتها الفرنسية الطاغية آنذاك على أجهزة الدولة وعلى الفلمنكيين، فإن

فيها وإخراجها من الاستعمال العام في بلاد الفلمنك. كما فرض الفلمنكيون أجندتهم السياسية في سلسلة طويلة من الإصلاحات الاتحادية التي فكّكت السلطات المركزية في بلجيكا بالتدرج ونقلتها إلى المقاطعات الثلاث بحيث أصبح أداء الحكومة الاتحادية في بلجيكا يقتصر على حقائب سيادية معينة كالخارجية والداخلية والعدل مع وجود وزارات موازية لها على مستوى المقاطعات. وبما أن لكل مقاطعة حكومتها المحلية، فقد بلغ عدد الوزراء في بلجيكا ٥٦ وزيراً يتقلدون ٦٨ حقيبة وزارية. وهذه حالة نادرة في العالم لأن استمرارها يؤثر على فاعلية القرارات واتخاذها، الشيء الذي أحال معظم الصلاحيات المتعلقة بالمواطنين وكل ما يمت إليهم بصله إلى الحكومات المحلية، وسحب البساط من تحت الحكومة الاتحادية التي يعثر تشكيلها كل مرة بعد الانتخابات الاتحادية. فقد استغرق تشكيل الحكومة الاتحادية الحالية سنة ونصف تقريباً (من ٢٧ مايو ٢٠١٩ حتى ١ أكتوبر ٢٠٢٠). والمدة ذاتها تقريباً احتاج إليها تشكيل الحكومة الاتحادية التي سبقت الحكومة الحالية. والسبب في ذلك عائد إلى أن الحكومات المحلية كانت تتشكل من ذات الأحزاب التي تتشكل الحكومات الاتحادية منها، إلا أن الانتخابات الأخيرة أبرزت فرقاً كبيراً في اختيار الناخبين الوالونيين الذي صوتوا للاشتراكيين والخضر، والناخبين الفلمنكيين الذين صوتوا للقوميين الذين لم ينجحوا في الحصول على رئاسة الوزراء الاتحادية، لكنهم استطاعوا أن يشكلوا أكثرية تقود الحكومة الفلمنكية المحلية.

ويُشكل وصول القوميين الفلمنكيين إلى سُدّة الحكم في بلاد الفلمنك، وقيادتهم للحكومة الحالية فيها، فرصة ذهبية كبيرة لهم لإعادة صياغة الهوية الوطنية الفلمنكية عبر الإعلام والفرنس وترسيخها، وهو ما يُعالجه هذا الكتاب الذي حرره محرران أحدهما برونو دي ويفير شقيق رئيس الحزب الفلمنكي القومي «التحالف

أما الحركة القومية الفلمنكية، فتأسست منذ بدايتها على اللغة الهولندية التي يتحدث الفلمنكيون بها لغةً أمّ لمواجهة طغيان اللغة الفرنسية على مؤسسات الدولة والتعليم في بلجيكا، وإقصاء اللغة الهولندية منها منذ تأسيس مملكة بلجيكا سنة ١٨٣٠ حتى مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي. إن إقصاء لغة أكثرية السكان -أي الفلمنكيين- من مؤسسة مهمة كالتعليم لصالح لغة أجنبية وتهميش ثقافة تلك الأكثرية هو الباعث الأول والأهم على نشوء الحركة القومية الفلمنكية التي تعود جذورها إلى بداية نشوء بلجيكا التي كانت الديانة الكاثوليكية -وليس اللغة أو الثقافة- العنصر الموحد لها سنة ١٨٣٠. فلقد تأسست بلجيكا وتشكلت هويتها الوطنية بناء على الديانة الكاثوليكية مقابل الديانة البروتستانتية في مملكة هولندا الشمالية. فعلى الرغم من أن الفلمنكيين ينتمون لغويًا وثقافيًا إلى البيئة الثقافية الهولندية إلا أنهم يفترون مع الهولنديين في الدين والمذهب. وبما أن الدين سنة ١٨٣٠ كان أقوى حضوراً في الحياة العامة من اليوم، فإن قضية اللغة لم تكن تطرح مشكلة كبيرة في وقت كان صوت الشعب فيه شبه غائب. إلا أن قضية اللغة أصبحت ملحّة في مطلع القرن العشرين، وصارت الحركة القومية الفلمنكية تناضل بقوة من أجل الحصول على حق التعليم باللغة الأم وهي الهولندية بدلاً من الفرنسية التي كانت مفروضة على الفلمنكيين. وعلى الرغم من أن الاعتراف باللغة الهولندية لغة رسمية في بلجيكا كان أواخر القرن التاسع عشر، فإن العلاقة بين الفلمنكيين والوالونيين بقيت مضطربة حتى اليوم. ومما يزيد من حدة الاضطراب بين الطرفين أن سيرورة التقدم الاقتصادي والازدهار الكبيرين في بلاد الفلمنك تتزامن مع تراجع في الأداء الاقتصادي والازدهار في القسم الناطق بالفرنسية الشيء الذي جعل الفلمنكيين يفرضون لغتهم وثقافتهم في بلاد الفلمنك ويحدون من طغيان الفرنسية



اللغة الهولندية في بلجيكا واستعمال اللغة الهولندية في هولندا، ذلك أن بعض تلك الفروق نشأ بسبب تأثر اللغة الهولندية في بلجيكا بالفرنسية. لذلك نشأت حركة تصويب وتصحيح بهدف تهذيب اللغة الهولندية وتطهيرها من التأثير الفرنسي عليها في بلجيكا، كانت وما زالت تدعو إلى الالتزام بالمعايير اللغوية الدلالية كما هي سارية في هولندا. «نشطت هذه الحركة في الإعلام بقوة في الفترة الممتدة من 1950 إلى 1980 في أعمدة مخصصة لها في الصحف النوعية» بطريقة معيارية تهدف إلى التأثير في استعمال الناس للغة الفصحى على غرار «قل ولا تقل» أو معالجة الأخطاء الشائعة في البلدان العربية. وفي الحقيقة إن اهتمام الفلمنكيين بلغتهم الوطنية «الهولندية» مثير للإعجاب، وإن اعتناهم بها في الإعلام بشكل عام مثير للتقدير. لكن الأهم هو اعتناؤهم بها على المستوى المؤسسي المتمثل في أنشطة مجمع اللغة الهولندية الذي يضع السياسات اللغوية والتخطيط اللغوي ويدير مؤسسات التقسيب أو المعيرة التي تدقق في صياغة المفردات المترجمة أو في وضع المصطلحات الجديدة، ويعمم استعمال ما تقره المؤسسات الجمعية على دوائر الدولة ومؤسسات المجتمع المدني.

الكتاب وثيقة مهمة تسرد تاريخ الحركة القومية الفلمنكية التي ناضلت حوالي قرن من الزمان من أجل تحقيق أحلام أطلقتها نخبة قليلة في البداية، ثم حشدت حولها المواطنين المؤمنون بتلك الأحلام، ثم ترجمتها إلى فعل سياسي مكن الحركة الفلمنكية من تشكيل حكومتين متتابعتين لحكم الإقليم الفلمنكي في بلجيكا، والتأثير بشكل جذري بالتحكم الناعم في السياسة العامة لبلجيكا. ومما أسهم في ذلك: جد الفلمنكيين وسعيهم الدؤوب ومنابرتهم على العمل مما جعل إقليمهم في طليعة الأقاليم المزدهرة في العالم. وساهم موقفهم الضعيف في الماضي في تطوير ملكة لغوية عجيبة. فبلجيكا دولة ذات ثلاث لغات رسمية (الهولندية والفرنسية والألمانية) تدرس في المدارس بالإضافة إلى اللغة الإنجليزية منزلتها ولكون بروكسيل عاصمة الاتحاد الأوروبي. ساعدتهم هذه الملكة اللغوية في تطوير ثقافة لغوية تعددية لا يكاد يظاهيهم فيها أحد في العالم، فخريج الثانوية العامة في بلاد الفلمنك يتخرج وفي جعبته أربع لغات على الأقل، مما مكّنهم من تبوء كل المناصب الاتحادية في بلجيكا عموماً وفي بروكسيل خصوصاً والتي يشترط للقبول فيها إتقان اللغتين الهولندية والفرنسية والنجاح في امتحان رسمي تنظمه الحكومة لذلك، وهو ما لا يستطيع الناطقون بالفرنسية مجاراة الفلمنكيين فيه.

• **الكتاب: «مخيلة الأسد.. تشكل الهوية الوطنية من خلال الإعلام في بلاد الفلمنك».**

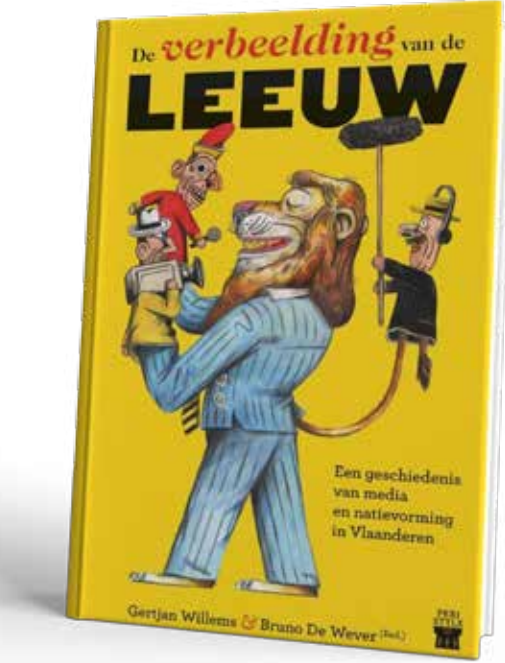
• **المؤلف: مجموعة كتاب - تحرير**

• **غيرتيان ويليمس وبرونو دي ويفير.**

• **الناشر: دار بيريستايل، أنتورب، بلجيكا، 2020، بالهولندية.**

• **عدد الصفحات: 381 صفحة.**

\* **أستاذ الترجمة في جامعة لوفان في بلجيكا**



السباحة كي لا يغرقوا في التيار كما يرى الكثير من خبراء العولمة. والتركيز على الهوية الوطنية وتفعيلها وتمكينها من خلال وسائل الإعلام والآداب الوطنية وإحياء الفنون الشعبية كل ذلك بمثابة المحاولة لإتقان فن العوم بهدف تفادي الغرق في تيار العولمة الجارف. والفلمنكيون هنا، شأنهم في ذلك شأن معظم الشعوب التي تهددها العولمة، يلجؤون إلى مخزونهم الثقافي لاتقاء شرور العولمة وبالتالي إنقاذ الهوية الوطنية من الذوبان. «من ثمة فكرة توظيف الإعلام بأنواعه ووضع قانون ثقافي يحتوي على أهم عناصر الهوية الوطنية الفلمنكية لتجسيدها في الأفلام والمسلسلات والآداب بأنواعه» لتصبح الهوية شيئاً ملموساً يُقدم للمواطنين، سواء أكانوا مواطنين أصليين أو مواطنين من ذوي أصول أجنبية، وكذلك للزوار والسياح الذين يزورون بلاد الفلمنك.

ولكن تبقى اللغة الفصحى «العامل الذي يوحد أي مجموعة من الناس والإسمنت الذي يشد أفراد تلك المجموعة إلى بعضهم البعض في لُحمة متينة». وهذا الحكم يسري على الحركة القومية الفلمنكية أكثر من سريانه على غيرها بسبب الحالة اللغوية الخاصة في بلجيكا التي نُظمت في سلسلة من التشريعات والقوانين أهمها تشريع سنة 1962 الذي رسم الحدود اللغوية للمقاطعات البلجيكية وحدد أية بلدية تتبع لأية مقاطعة لغوية. فالحركة القومية الفلمنكية نشأت نتيجة للصراع اللغوي مع الفرنسية وتكتسب شرعيتها بل وتستمد طاقتها من لغتها الوطنية - الهولندية. وإذا كان الفلمنكيون يتحدثون لهجات هولندية مختلفة مفهومة فيما بينها، إلا أنهم اعتمدوا في بلادهم اللغة الهولندية الفصحى المستعملة في المملكة الهولندية والتي أصبحت لغة التعليم والإعلام والتواصل العام بجميع أنواعه. وطور اللغويون الفلمنكيون بالتعاون مع زملائهم في هولندا سياسات لغوية متطورة تهدف إلى حماية اللغة الهولندية في بلاد الفلمنك من طغيان اللغة الفرنسية التاريخي عليها من جهة، والفلمنكيين من الفرسة من جهة أخرى، وذلك على الرغم من تراجع اللغة الفرنسية في كل مكان في العالم أمام تقدم اللغة الإنكليزية. وتمخض عن تلك السياسات تخطيط لغوي أسهم بطريقة فعالة في تقليص الفروق الإقليمية والفروق الدلالية والفروق المصطلحية بين استعمال

سبباً آخر يدعو الحكومة الفلمنكية اليوم إلى التركيز على الهوية الوطنية، ألا وهو الهجرة الكبيرة إلى بلجيكا منذ مطلع الستينيات من القرن الماضي، حيث كانت بلجيكا ومعظم دول أوروبا الغربية معها بحاجة إلى اليد العاملة لإعمار ما دمرته الحرب العالمية الثانية. أدت تلك الهجرة إلى نشوء تنوع ثقافي كبير في بلجيكا عموماً وفي بروكسيل وسائر بلاد الفلمنك خصوصاً. وتشكلت نتيجة لتلك الهجرة مجموعات كبيرة من السكان ذوي الخلفيات الإثنية والدينية والثقافية المختلفة (كالمصينيين والأتراك والمغاربة). وقد نتج عن هذا الواقع أحياء ذات طابع إثني أو ثقافي أو ديني مختلف كالحق اليهودي والحي الصيني وأحياء ذات أكثرية تركية أو مغربية/عربية. ونشأت عن هذا التنوع مرجعيات فكرية ودينية وثقافية تختلف في نظرتها إلى العالم (نظرية داروين مثلاً) وإلى الإنسان (الأقليات الجنسية مثلاً) وإلى البيئة الخ. وللحيلولة دون نشوء مجتمعات متوازية تعيش منعزلة عن بعضها البعض، لكل منها مرجعية ثقافية ودينية وأخلاقية مختلفة، انتدب وزير الثقافة الفلمنكي الأسبق ماريو كولن سنة 2005 لجنة مكونة من سبعة خبراء وأكاديميين من خلفيات دينية وثقافية مختلفة (أحدهم كاتب هذه المراجعة) لجرد القيم الإنسانية السائدة في المجتمع الفلمنكي والتي ينبغي على كل مواطن فلمنكي أو مهاجر إلى بلاد الفلمنك أن يقرأها لشموليتها.

وإذا اختلف أحد ضميراً مع بعض المضامين القيمية في المجتمع الفلمنكي (كنظرية داروين أو المثلية على سبيل المثال)، فله أن يعتقد ما يشاء بشأن تلك المضامين لأن حرية الضمير مكفولة دستورياً في بلجيكا ولكن بشرط ألا يمارس التمييز أو العنف ضد من يؤمن بنظرية داروين أو ضد المثليين. ثم وضعت «لجنة الحكماء» هذه ورقة عمل تُرجمت فيما بعد إلى سياسة استقبال تفرض على الوافدين إلى بلجيكا للإقامة والعمل في مقاطعة الفلمنك منها أن يتابع دروس اللغة الهولندية بالإضافة إلى «دورة توجيه اجتماعي» تمكن الوافدين من تعلم اللغة الهولندية وثقافة البلد خلال سنة. وقد ربطت دول كثيرة منها بلجيكا وهولندا امتياز الإقامة والعمل فيها بتعلم اللغة الوطنية والثقافة المحلية بهدف التأقلم معها والاندماج السريع فيها.

ويتوقف الكتاب عند كل المحطات أعلاه، وينطلق من تنصيب الحكومة الفلمنكية الجديدة التي يقودها القوميون في وثيقة الحكومة على جعل بلاد الفلمنك «بلاداً قوية واثقة من نفسها يشعر المواطنون فيها وكذلك الزوار إليها بالفخر والاعتزاز». ولتحقيق هذا الهدف «سوف تمكن الحكومة الفلمنكية للهوية الفلمنكية من خلال الاستثمار في صندوق وسائل الإعلام المسموعة والمرئية وفي صندوق دعم الأدب الفلمنكي». يمول الصندوق الأول صناعة الفلم والمسلسلات والألعاب في بلاد الفلمنك، بينما يدعم الصندوق الثاني قطاع الأدب بشكل عام وترجمته ونشره بشكل خاص. يقول المحرران: «إن التركيز على الهوية الوطنية والوطن أمر مثير للملاحظة لأن الوطن والهوية الوطنية فقدا الكثير من أهميتهما في النصف الثاني من القرن العشرين». ومن الغريب أن التركيز على فكرة الوطن والهوية الوطنية قد شهد في زمن العولمة ازدهاراً كبيراً، ليس فقط في بلجيكا أو بلاد الفلمنك فيها، بل في سائر العالم. فمن جهة يصبح العالم قرية كبيرة كما يقال، ومن جهة أخرى يزدهر الفكر القومي والدعوة إلى المحافظة على الخصوصية الثقافية للشعوب مقابل سطوة العولمة. لقد أصبحت العولمة أشبه بتيار جارف لم يعد أحد قادراً على السباحة ضد، بل إن أقصى ما يمكن لناوئي العولمة أن يفعلوه اليوم هو تعلم



## إعادة الضبط: استعادة الإنترنت للمجتمع المدني رونالد ديبرت

فينان نبيل \*

انتشر استخدام شبكة الإنترنت في الآونة الأخيرة انتشار النار في الهشيم، وأصبحت تقوم عليها خدمات كثيرة، وتحولت الأجهزة الخلوية الذكية في غضون جيل واحد إلى جزء أصيل من الحياة اليومية، وانصهر الإنسان في العالم الافتراضي، ولم يعد بوسعنا أن نفضل بوضوح بين حياتنا العادية، وحياتنا الافتراضية، وخلف استخدامنا الواعي لتلك التكنولوجيا، يسير أمر غير مرئي هو الألفة والاعتقاد للأنظمة المختلفة التي أصبحت آلة عملاقة تقود تحولاً عميقاً في كيفية التواصل وطرق الحصول على المعلومات. أصبح الجميع يعتمد على الأجهزة الإلكترونية، في العمل، واللعب، والتواصل مع الأقارب ومشاركاتهم للحظات المختلفة، والتقاط الصور ومقاطع الفيديو، ومتابعة حركة المرور، وتنبؤات الطقس، والأخبار، ومراقبة المنازل، وحجز الرحلات، وتذاكر الأفلام، والتسوق، وتفقد الوصفات، وحتى مراقبة دقات القلب، وأصبحنا نصاب بالذعر عندما لا نستطيع العثور على الهاتف المحمول، ويقدر ما يكون هذا أمراً جيداً فإنه مثير للقلق، فهو أصبح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنمط الحياة، إلا أن الحياة قد تكون أفضل بدونها؛ إذ إنه قد يُشجع عادات سيئة، فالأصدقاء لم يعودوا يتواصلون بشكل شخصي ومباشر، والأبناء يفزعون لأجهزتهم ليتحدثوا مع الغرباء، وأصابعهم تنقر باستمرار على هواتفهم. كيف يمكن لشيء «اجتماعي» كهذا أن يكون غير اجتماعي في ذات الوقت.

كامبردج أناليتيكا «من الظل لتظهر لمحة من العالم السفلي الغامض لوسائل الإعلام الاجتماعية، وظهر الجانب المظلم من شركات المرتزقة التي تمتلك تقنية عالية وتبيع خدمات الحرب الإلكترونية، لبعض حكام يستخدمونها لاختراق أجهزة خصومهم، وشبكاتهم، وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة؛ الأمر الذي يدعو للارتياح في أي نص، أو بريد إلكتروني مزود بمرفق؛ فقد اتسع العالم المتصل به الجهاز وأصبح مصدراً للخطر بشكل متزايد على الحياة الشخصية.

أصبحت شبكات التواصل بعد أن اجتاحت فيروس كورونا المستجد (COVID-19) أواخر عام 2019 جميع أنحاء العالم طوق النجاة عن أي وقت مضى؛ بسبب توقف الأعمال المعتادة، وإغلاق صناعات بأكملها، وإقالة ملايين الموظفين، واضطرار الجميع تقريباً إلى العزل الذاتي، والعمل من المنزل. وفي حين تهاوت جميع قطاعات الاقتصاد العالمي، شهدت منصات التكنولوجيا، وأدوات مؤتمرات الفيديو، مثل «زوم» وغيرها ارتفاعاً مذهلاً في استخدامها، وتحولت من أشياء غامضة إلى أشياء مألوفة يستخدمها الأجداد، والأطفال لساعات طويلة، ولعبت «تفليكس»، و«أمازون برايم»، و«يوتيوب»، وغير ذلك من خدمات الإعلام التي ازدهرت للغاية دوراً في الإلهاء المرحب به عن الأخبار الكئيبة للجائحة، وقفز استهلاك النطاق الترددي إلى مستويات هائلة لدرجة أن شركات الاتصال السلكية، واللاسلكية كانت تضع سقفاً لتدفق المواد وتخفيض جودة الفيديو لضمان عدم تحميل شبكة الإنترنت أكثر من طاقتها.

ارتفع على صعيد آخر بالضرورة معدل الجرائم الإلكترونية، واختراق البيانات إلى عنان السماء حيث استغل المخترقون الملايين من الناس الذين يعملون من منازلهم، والتي لم تصمم لأجهزتهم لأكثر من التحكم عن بعد في مطابخهم، وسياراتهم ولم تكن مؤمنة بالشكل الكافي، كما انتشرت المعلومات المضللة في كل مكان على الرغم من الجهود التي تبذلها منابر التواصل الاجتماعي لتوجيه مستخدميها إلى مصادر صحية موثوقة، إلا أن الناس تجرعوا سم تلك المعلومات المضللة المتناقضة عبر وسائل التواصل.

اعتمد «رونالد ديبرت» على أبحاث أجراها مختبر «سيتزن»، عن الأمن الرقمي، ليكشف أثر نظام الاتصالات على المجتمع المدني، وتتبع صناعة المراقبة غير المنظمة، وتقنيات التحكم عن بعد، وممارسات شركات العلاقات العامة الغامضة، وخدمات الاختراق مدفوعة الأجر التي تتغذى على أنهار من البيانات الشخصية غير المؤمنة جيداً. أدى الضغط الهائل في الاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي والتوسع فيه على حساب البيئة الطبيعية إلى ضرورة البحث على فرض قيود على منصات التكنولوجيا لمكافحة التدهور البيئي الاجتماعي، واستفحال الاستهلاك الإلكتروني، واستعادة الإنترنت للمجتمع المدني. يهدف الكتاب بشكل أكثر تحديداً إلى الإشارة لإعادة النظر بشكل أعمق في النظام الإيكولوجي للاتصالات وبشكل عاجل أكثر من أي وقت مضى.

تضج مواقع التواصل الاجتماعي بالفوضى؛ فقد يعتقد الآلاف بل ربما الملايين أن الأرض مسطحة؛ لأنهم شاهدوا مقطع فيديو على يوتيوب يروج لتلك الفكرة، وقد تنشر الشعوبية اليمينية، الفاشية الجديدة على شبكة الإنترنت وخارجها، فتؤجج الكراهية والقتل والإبادة الجماعية، وتهطل أمطاراً من الأخبار العالمية يوميا حول انتهاك الخصوصية والبيانات، وانتشار المعلومات المضللة، والتجسس والتلاعب بالأحداث السياسية مما يستلزم استدعاء المديرين التنفيذيين لوسائل التواصل الاجتماعي أمام جلسات الاستماع في الكونجرس والبرلمان لمواجهة وهج الكاميرات وتدفيق المشرعين.

كان استفتاء خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي عام 2016، والانتخابات الرئاسية للرئيس ترامب من العوامل الرئيسية التي عجلت بإعادة النظر في تأثير وسائل الإعلام الاجتماعية على المجتمع وعلى السياسة؛ ففي كلتا الحالتين استخدمت الجهات الفاعلة المحلية والأجنبية وسائل الإعلام الاجتماعية لنشر المخالفات وإشعال الاحتجاجات من واقع الحياة بقصد تعزيز الفوضى وتأجيج الانقسامات الاجتماعية الحادة؛ فيفضل التحقيقات التي أجريت خرجت بعض الشركات المشبوهة مثل،

ارتبط نشوء حضارة التكنولوجيا الرقمية بشكل متزايد بانعدام الأمن، وضعف المساءلة، مما يثير القلق من انتشار الاستغلال، والأمراض الاجتماعية والسياسية. كشف الخبراء الأمنيون مواطن ضعف يُحتمل أن تشكل خطراً، في استخدام تقنية المعلومات والاتصال الآن، فاستخدامات البشر للتكنولوجيا قد تكون في بعض الأحيان مدهشة إلى حد كبير، ومختلفة عن مقصود المصممين الأصليين، وقد يعلن الإبداع البشري عن نفسه بطريقة غير متوقعة، وكما أتاحت لنا شبكة الإنترنت الوصول إلى المكتبات، ووسائل التواصل الاجتماعي، فإنها أتاحت أيضاً للشركات الإجرامية فرصاً للقيام بأنواع جديدة من المخالفات بأقل نسب مخاطرة، مثل البريد الإلكتروني غير المرغوب فيه، ومخططات التصيد الاحتيالي، وبرامج الروبوتات، وخلقت أيضاً فرصاً لازدهار ممارسات المساومة والابتزاز.

يستعرض كتاب إعادة الضبط المشاكل المتعلقة بوسائل الإعلام الاجتماعية، وفحص الأمراض الاجتماعية من خلال أعراضها، ومن خلال البحوث والتقارير التي قام بها الكثير من العلماء لتقديم صورة شاملة دقيقة تصل لأكبر قدر من غير المتخصصين. يهدف الكتاب «إعادة ضبط»، إلى إجراء تقييم الفترة الاستثنائية والمزعجة للغاية من الزمن الذي نمر به.

يستخدم مصطلح «إعادة الضبط» في لغة الكمبيوتر، والشبكات على نطاق واسع للإشارة إلى الإجراء الذي يُوقف النظام ويُعيد إلى حالته الأولية، وغالباً ما يستخدم مصطلح إعادة التشغيل بالتبادل معه، وهي طريقة للهروب وإنهاء العمليات التي تسبب مشاكل والبدء من جديد. يستخدم مصطلح «إعادة الضبط» للإشارة إلى بداية جديدة تسمح لنا بتجنب أخطاء الطرق القديمة، والبدء من جديد بأساس مدرّوس. اضطرت المجتمعات إلى إعادة ضبط غير متوقعة بعد جائحة كورونا؛ فقد فرضت الحكومات في جميع أنحاء العالم بروتوكولات الحجر الصحي والعزل الذاتي، وتم تطبيق تدابير الطوارئ، ودفعت هذه المهلة إلى إعادة النظر في العديد من جوانب حياتنا وسياستنا.



تعرض أنماطاً مزعجة من مخاطر عدم المساءلة، وزادت جائحة كورونا من هذه المخاطر عندما أعلنت الحكومات حالة الطوارئ، وتحولت إلى التوسع في آلية التواصل الاجتماعي لمراقبة البيانات الشخصية للأغراض الطبية والحيوية.

يتزايد الاعتراف بالآثار السلبية لوسائل التواصل الاجتماعي وتوثيقها بشكل جيد، ولكن ماذا نفعل حيالها مسألة مختلفة، وهذا لا يعني أنه لا توجد حلول مقترحة؛ إنها وفيرة ومتكاثرة، ولكنها تفتقر أيضاً إلى إطار شامل يربطها معاً، بل إنها في بعض الحالات متناقضة. ومن أجل الجمع بين بعض هذه الحلول الجزئية، دعا الكاتب لإجراء بسيط ولكنه قوي هو «ضبط النفس» ويعني الحس السليم، وإبقاء شخص ما أو شيء ما تحت السيطرة، بما في ذلك مشاعره وعاداته وسلوكياته.

يرى «ديبرت» أن الأمر يبدو كما لو كنا نسير نياماً في حضارة جديدة من صنعنا قائمة على الآلة، ونحن الآن فقط نستيقظ على عواقبها غير المتوقعة، «هذا الإحساس بالحتمية يقود ديبرت إلى مفهوم ضبط النفس كطريقة للوصول إلى إعادة الضبط الضرورية للغاية للعالم الرقمي. إن ضبط النفس، على الرغم من بساطته، هو مفهوم ذو إرث تاريخي ثري يرتبط بسلسلة طويلة من التفكير الفلسفي السياسي والممارسة التي تمتد إلى اليونان القديمة. وباستلهاً بعض الطرق التي تصور بها المفكرون آليات ضبط النفس في الماضي، طرح بعض الاقتراحات حول الكيفية التي قد ن فكر بها في تدابير ضبط النفس في عصرنا هذا كوسيلة لكبح جماح تجاوزات وسائل التواصل الاجتماعي، والاحتراز من إساءة استخدام السلطة، مع الحفاظ في الوقت نفسه على الإمكانيات الكبيرة التي ينطوي عليها النظام الإيكولوجي للاتصالات.

حان الوقت للاعتراف بأن نظام مراسلاتنا -بتسكيله الحالي - أصبح مختلاً تماماً، فهو يعوق المؤسسات، والممارسات، ويطلق العنان لقوى اجتماعية جديدة بطرق غير متوقعة، وكثير منها يخلف تأثيرات ضارة، وقد تسحق الحريات الفردية، وتخلق فرصاً جامحة للفساد والاستبداد.

لا يزال الابتكار التكنولوجي الجامع في حد ذاته يسير على طريق كارثي من الاستهلاك. تمنحنا إعادة الضبط فرصة نادرة لتصوير بديل، والبدء في عملية تحقيقه بالفعل. لا شك أنها لن تكون سهلة، ولن تحدث بين عشية وضحاها. ولكن الاستسلام القدري للوضع الراهن ليس بديلاً حقيقياً أيضاً. يهدف «إعادة الضبط» إلى المساعدة في البدء في التفكير في طريقة للتخفيف من أضرار وسائل الإعلام الاجتماعية، وبناء نظام بيئي للاتصالات يدعم المجتمع المدني ويسهم في تحسين الحالة البشرية.

## • عنوان الكتاب: إعادة الضبط- استعادة

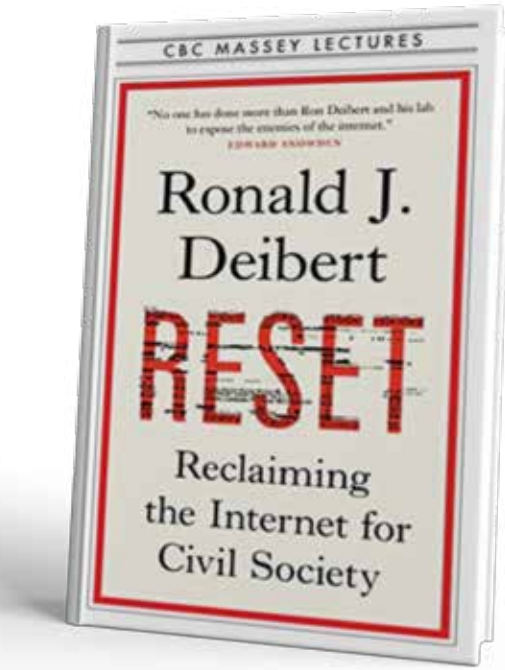
### الإنترنت للمجتمع المدني

• المؤلف: رونالد ديبرت

• الناشر: أسبن 2020-

• لغة الكتاب: الإنجليزية

\* كاتبة وباحثة مصرية



التواصل، وتوفر المعلومات، ولكنها أصبحت تبحث بشكل أعمق في حياته الشخصية، فتتقلب العلاقة بين المستخدم والمنصة، فيبدو ظاهرياً أنهم يخدموننا ويقدمون لنا شيئاً مفيداً نافعاً، ولكن في العمق، تحولنا إلى مادة خام لديهم بقواعد بياناتنا الضخمة.

تناول الكتاب أيضاً التفاعل بين وسائل التواصل، وعلم النفس الاجتماعي، وتتمثل وظيفة مهندسي تلك الوسائل في تصميم منتجاتهم بطريقة تجذب اهتمامات المستخدمين، وتبقى عليهم وهم يعتمدون في ذلك على رؤى، وأساليب مستمدة من الإعلانات التجارية، وعلم النفس السلوكي، ومعرفة الغرائز، والدوافع، والسمات المعرفية المتصلة بردود الفعل العاطفية وغيرها من ردود الأفعال. وأحياناً تميل وسائل الإعلام الاجتماعي إلى محتوى متطرف، ومثير، مما يؤدي بدوره إلى التقليل من جودة، ومصداقية المنصات، ويخلق فرصاً للجهات الفاعلة الخبيثة لاستخدام تلك المنصات كقنوات لزراعة الانقسام، ونشر المعلومات المضللة، وتقويض التماسك، وتحفيز شهية التخريب التي تحولت إلى تجارة كبرى مع بيع شركات العلاقات العامة «المظلمة» لمجموعة واسعة من بيانات العملاء، وأسهمت مع عدد من العوامل في اتساع النزعة القبلية، والاستقطاب الاجتماعي. إن انتشار المعلومات المضللة في المجال العام أمر لا يتحمله فيسبوك أو تويتر، وحدهما. إن ممارسة النشر المعتمد لمعلومات خاطئة قديمة قدم البشرية نفسها، وإن خلقت وسائل التواصل الاجتماعي ظروفاً مواتية لنشرها اليوم، ونتيجة ذلك انتشرت ممارسات التضليل الإعلامي، وأصبحت أكثر تطوراً، ومدعومة بمزيد من الموارد، وبالتالي يمكن أن يكون لها آثار أكثر ضرراً مما سيكون عليه الحال في غياب وسائل التواصل الاجتماعي. تطرق الكتاب إلى وسائل الإعلام الاجتماعية التي يعتمد عليها المجتمع المدني مؤكداً أنها تعج بأوجه انعدام الأمن، ومخاطر الاحتيال، وأشكال أخرى من استغلال البيانات الشخصية للمستخدمين، فضلاً عن حالات تهديد الحياة. هذه القفزة في التكنولوجيا حدثت خفية في غياب أي تدابير تعويضية تمنع إساءة الاستخدام، وقد تميل الأنظمة السلطوية إلى التحكم في توزيع البيانات، كما يحدث في الصين، ولكن الديمقراطيات الليبرالية

افتترضت الحكمة التقليدية في الماضي أن التكنولوجيا الرقمية من شأنها أن تمكن أعظم قدر من القدرة للحصول على المعلومات، وأن تيسر التنظيم الجماعي، وأن تمكن المجتمع المدني، فقد بدأ «الربيع العربي»، وغير ذلك من الحركات الاجتماعية التي تغذت رقمياً، وكانت تبرهن على قوة الشعوب التي لا يُمكن وقفها، وصفق الكثير من المتحمسين للتكنولوجيا، ولكل ابتكار جديد كوسيلة لتقريب الناس من بعضهم، وتنشيط الديمقراطية. أما الآن فيُنظر إلى وسائل الإعلام الاجتماعية على نحو متزايد أنها تسبب نوعاً من المرض الاجتماعي، ويتزايد عدد من يعتقدون أن وسائل الإعلام الاجتماعية لها تأثير غير مناسب على التنشئة الاجتماعية، والقرارات السياسية الهامة، وبدأ آخرون يلاحظون أننا ننفق قدراً غير صحي من حياتنا نحدق في أجهزتنا، في حين أننا نعيش في الواقع عزلة وانفصالاً عن الواقع. ظهرت نتيجة هذا القلق المتزايد دعوات إلى تنظيم وسائل التواصل الاجتماعي وتشجيع المديرين التنفيذيين للشركات على أن يكونوا مشرفين بشكل أفضل على برامجها، واحترام الخصوصية.

تجمع وسائل التواصل الاجتماعي البيانات الشخصية لمستخدميها بلا هوادة، وتحولها إلى نقود، سواء «الفييس بوك»، أو «جوجل»، أو «سناپ شات»، أو «تيك توك»، وهناك أجيال لا تعرف ما هو شعور الحياة دونهم. إن وسائل التواصل الاجتماعي ليست كل شيء، ولكنها تؤثر على كل شيء، فالمنصات التي تدير وسائل الإعلام الاجتماعية تتمتع بجاذبية هائلة وتكتسح كل شيء آخر في طريقها في بعض الأحيان، ومن خلال عملية الاستحواذ تمتص حتى التطبيقات غير الاجتماعية إلى مجرة الإعلام الاجتماعي.

يتكون النظام الإيكولوجي لوسائل التواصل العالمية، من عناصر متطورة بعضها بطيء ومستمر وبعض منها سريع التحور؛ فهناك معايير، وبروتوكولات، وأجهزة، وتطبيقات، وأنهار من البيانات، بعضها محدد في قنوات محكمة، وبعضها يتسرب عبر الشقوق والثغرات، تعد البيانات هي «النفط الجديد»، والذي سيزداد قيمة بعد الانتقال لتكنولوجيا الجيل الخامس.

أجريت كثير من الأبحاث على تأثير وسائل الإعلام الاجتماعية على الأمراض الاجتماعية والسياسية، وأثر التطور الرقمي على إدراك الإنسان وسلوكه، فأتضح أن هناك صفات إدمانية تنتج عن الممارسات الرقمية، مما يفسر الذعر الذي يصيب البعض عندما يفقد جهازه المحمول، فضلاً عن تأثيرات ذات مستوى أعلى مثل الاستقطاب الديني، أو السياسي، إلا أنه لا يُمكن أن نلقي باللائمة على تلك الوسائل وحدها فالمجتمعات معقدة، ولا يمكن الاعتماد على الأحادية السببية حول أمراض المجتمع؛ فكثير من التأثيرات السلبية التي ينسبها المجتمع لهذه الوسائل يعود في الحقيقة لتدهور الثقة في المؤسسات العامة، ووجود عوامل متداخلة ويعود بعضها لعقود خلت. وتأطير علاقة السببية على هذا النحو يجنب تأثير المتغيرات الاجتماعية، مما يعتبره بعض العلماء اختزالاً للعلاقة بين الأنواع والبيئة. كذلك بيئة الاتصالات تتغير فيها الممارسات والظروف، والأفكار، والمؤسسات إيجاباً وسلباً.

أدى ظهور سلاطة التطبيقات في العقد ونصف العقد الماضيين خاصة الأعمال الاستثنائية «جوجل، وفيسبوك» إلى نشأة ما يعرف بـ«رأسمالية المراقبة» للاستفادة من البيانات فيما هو اقتصادي، أو سياسي، وهو الاقتصاد القائم على مراقبة البيانات الشخصية، فقد تبدو منصات التواصل وكأنها تخدم المستخدم، تحقق له



## ديمقراطية بدون اختصارات: مفهوم تشاركي للديمقراطية التداولية كريستينا لافون

علي الرواحي \*

يوضح هذا الكتاب الجديد للفيلسوفة الأسبانية الأصل كريستينا لافون، على مدى ثلاثة فصول، المفهوم التشاركي للديمقراطية التداولية التي تأخذ النموذج الديمقراطي للحكم الذاتي على محمل الجد. فهي تبحث كما في الكثير من أعمالها في نطاق الأسئلة المعيارية للفلسفة السياسية المعاصرة، مركزة على الديمقراطية، ومشاركة المواطنين، والحكومة العالمية، وحقوق الإنسان، والجوانب الدينية والسياسية المتداخلة في هذا الشأن.

الفصل الأول، المعنون بالمثل الديمقراطي للحكم الذاتي، يتناول العلاقة بين عنصرين للمثال الديمقراطي للحكم الذاتي: المساواة السياسية والرقابة الديمقراطية للمواطنين. ففيما يتعلق بالرقابة الديمقراطية، تجادل المؤلفة بأنه يُمكننا تقييم الوعد الديمقراطي لمفاهيم مختلفة للديمقراطية ومقترحات الإصلاح المؤسسي من خلال تقييم مدى طلبات أو توقعات المواطنين للخضوع الأعمى لقرارات الآخرين؛ ذلك لأن مفاهيم الديمقراطية التي تتضمن مثل هذا التوقع تقبل ضمناً إمكانية وجود اختلال دائم بين معتقدات ومواقف المواطنين من جهة، والقوانين والسياسات التي يخضعون لها من الجهة الأخرى. وبالتالي، لا يمكنهم شرح كيف يمكن للمواطنين التماهي مع السياسات التي تحكمهم والمصادقة عليها على أنها سياساتهم الخاصة؛ وذلك نظراً لأن توقع الخضوع الأعمى يتعارض جوهرياً مع النموذج الديمقراطي للحكم الذاتي، فهو يقدم معياراً مفيداً لتحديد أوجه قصور الديمقراطية من بين مفاهيم الديمقراطية المختلفة التي تقترح وجود «اختصارات» مختلفة من شأنها تجاوز المداورات السياسية من قبل المواطنين.

من المواطنين؛ فإن الاستخدام العام للجمهوريات الصغيرة في صنع القرار من شأنه أن يقلص، بدلاً من زيادة قدرة المواطنين على تولي زمام الأمور والتوافق مع السياسات التي يخضعون لها، كما يتطلب النموذج الديمقراطي للحكم الذاتي. فاللوتوقراطيون محقون في تسليط الضوء على الإمكانيات الديمقراطية للجمهوريات الصغيرة. ولكن من أجل إطلاق العنان لتلك الإمكانيات، يجب أن نقاوم إغراء اتخاذ «الطريق المختصر للتداول الجزئي» وأن نبقي أعيننا على هدف التداول الكلي، بدلاً من تمكين الجمهوريات الصغيرة من اتخاذ القرارات لبقية المواطنين، كما يجب على المواطنين استخدامها لتمكين أنفسهم.

بالإضافة لذلك، يستكشف الجزء الثالث كيف يمكننا إضفاء الطابع المؤسسي على الجمهوريات الصغيرة التداولية من أجل خدمة الأهداف الديمقراطية الحقيقية والكبيرة، وذلك على النقيض من الاستخدامات الممكنة للجمهور المصغر الذي من شأنه تجاوز المداورات السياسية للمواطنين، والتي من خلالها يمكن للمواطنين استخدام الجمهوريات الصغيرة للأغراض الاستباقية والمثيرة للجدل، حيث ستعمل هذه الاستخدامات للجمهور المصغر على تحسين جودة التداول في المجال العام وستجبر أيضاً النظام السياسي على اتخاذ الطريق السريع المتمثل في إشراك المواطنين بشكل صحيح في العملية السياسية. كما يوضح هذا الفصل هذه الأشكال المحتملة من النشاط التداولي، بمساعدة أمثلة من استطلاعات الرأي التداولية الفعلية التي أجراها جيمس فيشكين James Fishkin على مدى عدة عقود، حيث يوضح هذا التحليل كيف يمكن للجمهور المصغر عن طريق التداول أن يساعد في تحسين الجودة الديمقراطية للتداول

الإجراءات الديمقراطية دالة على جودة نتائجها. كما يفترضون أن جودة النتائج دالة أيضاً على جودة المعرفة التي يولدها صانعو القرار. على هذا الأساس، يوصي الأبيستقراطيون epistocrats بأن يدعن المواطنون بشكل أعمى لقرارات الخبراء السياسية (سواء كانت النخب السياسية أو عينة تمثيلية من السكان) للوصول إلى نتائج سياسية أفضل. غير أن هذا النهج يغفل الأهمية الديمقراطية للتداول العام، وذلك من خلال تقليص الوظيفة المعرفية للتداول بهدف تحديد أفضل السياسات، التي تتجاهل وظيفة معرفية مهمة أخرى للتداول، وهي التمثيل في ضمان أن السياسات المعنية يمكن تبريرها لأولئك الذين يجب أن يمثلوا لها، غير أنه بدون تعاونهم فإن هذه النتائج المرجوة لا تتحقق. وبالتالي، إذا كنا نهتم بالنتائج، يجب أن نتخلى عن إغراء «اختصار الخبراء» والتركيز على تحسين عمليات تكوين الرأي، والإرادة التي يشارك فيها المواطنون حتى يمكن تحقيق نتائج أفضل.

والجزء الثاني يبحث في المفاهيم «اللوتوقراطية»lottocratic للديمقراطية التداولية، التي وضع المدافعون عنها آمالهم الديمقراطية أمام الاستخدام العمومي للجمهوريات التداولية الصغيرة minipublics مثل هيئات محلفين للمواطنين، ومجالس للمواطنين، والاستطلاعات التداولية. ويقترح البعض منح سلطة اتخاذ القرار السياسي للجمهوريات الصغيرة كوسيلة لزيادة سيطرة المواطنين الديمقراطية على العملية السياسية. وفي مقابل هذا الرأي، يجادل هذا الفصل بأنه لا يمكن الدفاع عن مثل هذه المقترحات على أسس تشاركية، من خلال توقع أن يدعن المواطنون بشكل أعمى للقرارات السياسية لمجموعة مختارة عشوائياً

الجزء الثاني من الفصل الأول بعنوان «مفاهيم التعددية العميقة للديمقراطية»، يحلل المفاهيم التعددية العميقة للديمقراطية، حيث يؤكد المدافعون عن هذا النهج أن الخلاف السياسي عميق جداً بحيث لا يمكن التغلب عليه بشكل معقول. ففي ضوء هذا النهج، يوصون بالإجراءات التي تتخذها الأغلبية ك«طريق مختصر» لحل مشكلة الخلاف العميق مع الحفاظ في نفس الوقت على المساواة السياسية. في مقابل هذا الرأي، يُظهر هذا الفصل أن نظام الأغلبية لا يترك للأقليات خياراً آخر سوى الإذعان الأعمى للأغلبية الحاسمة. وبقدر ما يكون الأمر كذلك، لا يستطيع أنصار التعددية العميقة شرح كيف يمكن لجميع المواطنين التماهي مع القوانين والسياسات التي يخضعون لها والمصادقة عليها باعتبارها قوانينهم الخاصة، كما يتطلب المثل الديمقراطي للحكم الذاتي؛ فأنصار التعددية العميقة محقون في الدفاع عن المساواة السياسية والإصرار على ضرورة الاستجابة لتحدي الخلاف المتفشي بين الأفراد. ومع ذلك، لا يمكننا الاستفادة من هذه الأفكار إلا إذا تخلينا عن إغراء اتخاذ «الطريق الإجرائي المختصر» واعتناق الطريق الطويل للديمقراطية التشاركية التداولية.

كما يتناول الفصل الثاني من هذا العمل، تحت عنوان «لماذا الديمقراطية التشاركية التداولية؟» على مدى أربعة أجزاء، المفاهيم المعرفية البحتة للديمقراطية، والمفاهيم اللوتوقراطية Lottocratic للديمقراطية التداولية، والمؤسسات اللوتوقراطية من منظور تشاركي، والمفهوم التشاركي للديمقراطية التداولية. يبحث الجزء الأول في المفاهيم المعرفية البحتة للديمقراطية التداولية. بالنسبة لمؤيدي هذا النهج، فإن قيمة





المؤسسية التي تجري فيها هذه المنتديات، حيث أنها لا تنجح في تحريك الكثير من المواضيع السياسية، أو المؤسسات القائمة، كما أنها في المقابل، تعمل كأدوات لشرعنة القوانين الموجودة، والمتعارف عليها، الأمر الذي لا يجعلها عجلة في التغيير كما هو متوقع، ولا تساهم في تعزيز الديمقراطية، وخلق مجتمع تشاركي، أو تداولي.

في الجانب الآخر، نجد أن النقد العميق الموجه للعمل من قبل الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس تجاه هذا العمل، يمنحه بُعداً مهماً، ربما يكون غائباً عن ذهن الكاتبة، حيث أن هذه الصورة التعددية الراديكالية للجمهور، من الممكن أن تكون سبباً في تنافر هذه الأصوات وبالتالي في وجهات النظر، ولا يمكن التوفيق بينها، كما هو الحال في وجود أعداد كبيرة من الخبراء اللامباليين، أو غير الملمين بالكثير من التفاصيل المختلفة، في الكثير من الشؤون العامة، وهذا يؤثر بدوره على الفضاء العام، الذي يتشكل بناءً على وجهات نظر متعددة، وليست وجهة نظر واحدة، قد تكون رسمية، أو حتى تنتمي للمجتمع المدني.

فالفكرة المركزية للتشريع الذاتي الديمقراطي، مثل القراءة التداولية للعملية الديمقراطية، تجمع بين فكرة روسو القائلة بأن المواطنين الديمقراطيون لا يطيعون سوى القوانين التي أعطوها لأنفسهم مع القوة المنقذة للأراء السياسية التي تم تصفيتها من خلال الخطاب. إن تنوع الاهتمامات والآراء بين الجمهور غير المتجانس والعامل المحدود للوقت والاهتمامات، تمكن المواطنين العاديين من تخصيصها لالتزاماتهم العامة، كما تعني أن الأسباب الوجيهة فقط هي التي يمكن أن تسهم في اتخاذ قرارات معقولة، وتساعد في حل المشكلات وتوليد قنوات مشتركة، وذلك يخدم التكامل السياسي. كما أن الاعتراضات على المفاهيم المتناقضة للتعددية الراديكالية والاعتماد على آراء الخبراء تدعم الاستنتاج القائل بأن كلا النهجين يحدان من الاستقلالية السياسية للمواطنين، وبالتالي يخونان جوهر الفكرة الديمقراطية، كما يشير هابرماس بكل حداقة.

بالإضافة لذلك، من النقاط المهمة التي يركز عليها نقد هابرماس لهذا العمل، بأن التداول مواز للبحث عن الحقيقة، وذلك من خلال تمييزها بين الدور المعرفي للإجراء التداولي، والوظيفة التكاملية الاجتماعية للاتفاق في القنوات التي يتم التوصل إليها من خلال هذه المداولات؛ فالمداولات السياسية لا تهدف فقط للوصول للمعتقدات الصحيحة، ولكن أيضاً لتأسيس القواسم للقنوات المشتركة بين الذات. حيث إن هذا هو المصدر الذي تستمد منه السياسات والقوانين إلزاميتها، وفي النهاية مشروعية النظام السياسي ككل.

• **الكتاب: ديمقراطية بدون اختصارات:**

• **مفهوم تشاركي للديمقراطية التداولية.**

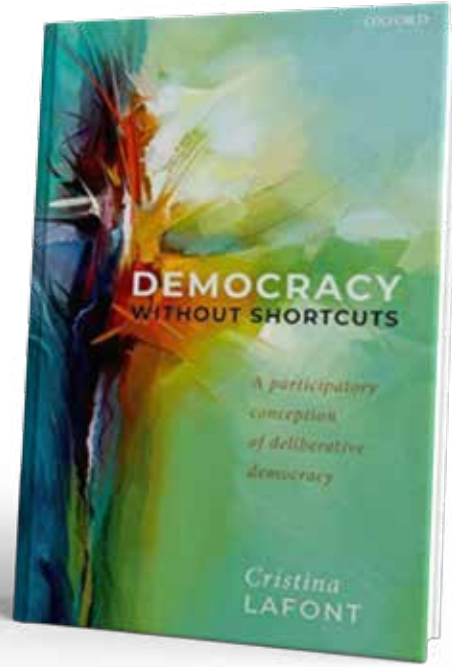
• **المؤلف: كريستينا لافون**

• **الناشر: Oxford University Press, 2020**

• **عدد الصفحات: 288**

• **لغة الكتاب: الإنجليزية**

\* **كاتب عُمانى**



حق المواطنين في الطعن القانوني، الذي توفره المراجعة القضائية للمواطنين طريقة لتجنب الاضطرار للخضوع الأعمى لقرارات مواطنيهم. فيقدر ما توفر هذه الإجراءات إجراءً مؤسسياً يمكنهم من خلاله استدعاء مواطنيهم للمساءلة عبر المطالبة الفعالة بتقديم الأسباب المناسبة علناً لتبرير القوانين والسياسات التي يخضعون لها جميعاً. فبفضل هذه القوة التواصلية، يمكن لجميع المواطنين المشاركة كأنداد سياسيين في العملية المستمرة لتشكيل وبلورة رأي عام مدروس يدعم القرارات السياسية التي يمكنهم امتلاكها والتوافق معها «تماماً مثل المثل الأعلى الديمقراطي للذات»، والتي تتطلب حكماً ذاتياً.

أثار هذا العمل الكثير من ردود الأفعال العالية الاحتفائية والناقدة أيضاً، وبشكل خاص في الجانب الفلسفي المهتم بالنطاق السياسي، حيث يُعتبر مصطلح الجمهوريات الصغيرة minipublics المطروح في هذا العمل، أحد التطورات المهمة في الإصلاح الديمقراطي العالمي، الذي كان يُعتبر لفترة طويلة سابقة، مرفوضاً، أو يعتبر حُلماً خيالياً غير ممكن التحقيق. غير أن الديمقراطية التداولية أظهرت كيف يمكن تصميم منديات للمواطنين لدعم المعايير التداولية. ففي هذا العام فقط ٢٠٢٠، تم اختيار ١٥٠ مواطناً بشكل عشوائي للتداول خلال عطلة نهاية الأسبوع لتحديد كيف يمكن خفض انبعاثات الكربون بحلول عام ٢٠٣٠. وفي الوقت نفسه، في طوكيو، عُقدت اجتماعات لمداولات المواطنين لتمكينهم من حل المشكلات اليومية مثل جمع القمامة ووسائل النقل العام المزدهمة، وغيرها من المبادرات المختلفة. هذه «الموجة التداولية»، مثل زيادة في استخدام مجالس المواطنين، وهيئات المحلفين، واللجان على جميع مستويات الحكومة، في أجزاء مختلفة من العالم، وجهت نقداً حاداً لمؤسسات التمثيلية للديمقراطية الليبرالية المختلفة، كالبرلمان، والأحزاب، وغيرها من المؤسسات؛ ذلك أن أدوات الديمقراطية التداولية مثل الاستفتاءات العامة، ومبادرات المواطنين المختلفة، من الممكن أن تُضفي الطابع المؤسسي على مثل هذه الأفكار، كما يمكنها تزويدهم برؤية معيارية لهذه الإجراءات. غير أنه في المقابل، واجهت مثل هذه المبادرات أو المصطلحات، نقداً حاداً حول تجاهلها للخلفيات

السياسي في المجال العام، مع تعزيز سيطرة المواطنين الديمقراطية على القرارات السياسية.

علاوة على ذلك، يركز الجزء الرابع على الأهمية الديمقراطية للتداول السياسي، ويجادل بأن الديمقراطية لا يهددها إدراج البعد المعرفي للحقيقة في النقاش السياسي ولكن بدلاً من ذلك، يُهددها استبعاد البعد المعرفي للتبرير تجاه الآخرين الذين يجب أن يمتثلوا لنتائج المناقشات السياسية. من الأمور التي يجب افتراضها - كما يفعل الديمقراطيون المتداولون - أنه بمرور الوقت قد تؤدي الصراعات السياسية إلى الاتفاق على أفضل الإجابات لبعض الأسئلة السياسية؛ ذلك لأن تجاهل الحاجة إلى حدوث مثل هذه النضالات السياسية والنجاح أمر آخر تماماً - كما يفعل الأيستقراطيون. كما يوضح الفصل ويدافع عن نهج مؤسسي للتسوية المتبادل. في هذا النهج، لا تتطلب الشرعية الديمقراطية من كل مواطن الاتفاق على معقولة كل قانون يخضع له في أي وقت. ما يتطلبه الأمر هو أن تكون المؤسسات في مكانها بحيث يمكن للمواطنين الطعن في أي قوانين لا يمكنهم قبولها بشكل معقول من خلال طلب تقديم أسباب مناسبة أو تغييرها، ويقدر ما تكون هذه المؤسسات متاحة لجميع المواطنين، يمكنهم أن يروا أنفسهم أعضاءً متساوين في مشروع سياسي جماعي للحكم الذاتي.

بالإضافة لذلك، يتطرق الفصل الثالث والأخير من هذا العمل، في جزئه الأول للمفهوم التشاركي للعقل العام، عن طريق أخذ النموذج الديمقراطي للحكم الذاتي كمرشد، وموجه، فهو يساعد في إلقاء ضوء جديد على دور الأسباب الدينية في السياسة، وذلك من خلال إظهار نماذج الاستبعاد والدمج والترجمة العلمانية، التي تفضل في تفسير كيف يمكن لجميع المواطنين، سواء أكانوا متدينين أو علمانيين، أن يروا أنفسهم مشاركين متساوين في مشروع جماعي للحكم الذاتي. بعد تحليل الصعوبات التي تواجه كل نموذج من هذه النماذج، يدافع الفصل عن مفهوم بديل تشاركي للعقل العام يوضح كيف يمكن للتداول السياسي أن يكون عملية شاملة تمكن جميع المواطنين من الانخراط في التسوية المتبادل، والتأثير على وجهات نظر بعضهم البعض على الرغم من وجود خلافات عميقة. ويحمل هذا التوجه تشابهاً قوياً مع عقل جون راولس العام Rawlsian ولكنه مختلف عنه بشكل كبير جداً. على وجه الخصوص، يرى هذا التوجه التشاركي للعقل العام أنه غير كاف، بحيث يمكن للمواطنين الاعتماد على وجود واجب أخلاقي للكياسة. وبدلاً من ذلك، فإن الحقوق الفعالة في الطعن السياسي والقانوني مطلوبة لتمكين المواطنين من إطلاق عملية التسوية العام لمعقولة أي سياسات يرون أنها غير مقبولة.

كما يوضح الفصل الأخير بعنوان، «المواطنون في الجلباب»، كيف يمكن تأسيس دفاع مشترك عن الشرعية الديمقراطية للمراجعة القضائية. ويستند هذا الدفاع على تحليل المفرد الديمقراطي لحق المواطنين في الطعن القانوني. ومقابل النظرة السائدة للمراجعة القضائية باعتبارها طريقاً مختصراً للخبراء، يتطلب من المواطنين الإذعان الأعمى للقرارات السياسية للقضاة، كما يُظهر التحليل أن مؤسسات المراجعة القضائية تمكن المواطنين من الاستخدام الفعال لحقهم في المشاركة في النضالات السياسية الجارية لتحديد النطاق المناسب لحقوقهم وحررياتهم الأساسية. وهذا صحيح بغض النظر عن مدى خصوصية مواطنيهم الذين يعتقدون أن مصالحهم وآراءهم وقيمهم معرضة للخطر والتهديد، وذلك من خلال ضمان



## علوم الحديث إم. إس عبدالرزاق

### فيلا بوراتو عبدالكبير \*

يحتوي كتاب « علوم الحديث » مجموعة أوراق قُدمت في مؤتمرين؛ أحدهما انعقد في الجامعة الإسلامية بشانتا بورام كيرالا، والثاني انعقد في الدوحة تحت إشراف مركز الجالية الهندية.. وشارك فيهما عدد من الباحثين للمناقشة في علوم الحديث. وكما أشير في مقدمة الكتاب، فهو بحر يتسع زهاء ٦٥ نوعا من المواضيع في رأي العلامة ابن صلاح، ٩٣ نوعا في رأي الإمام السيوطي. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وداعه الأمة «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي». هكذا أصبحت السنة المصدر الثاني للتشريع في الإسلام. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد ساعي البريد يقوم بتسليم مواد البريد لأصحابها ثم يذهب في طريقه دون أن يلتفت إليهم، بل كان معلما يُبعث لتزكية أمته وتربيتهم على أساس التعليمات الربانية. كان الرسول هو البطل في المعركة بين الحق والباطل. وأقوال البطل وأعماله لأي حركة تُحفظ لكي يتبادلها نشطاء الحركة جيلا بعد جيل. فإذن السنة بمثابة تاريخ الحركة الإسلامية الذي يُحيي ويُخلد ذكرى بطل الحركة في ضمير الزمان، وإنكار السنة محاولة لمحو ذلك البطل من ذاكرة الزمان. فإذا اختُطف البطل من على خشبة مسرح التاريخ فلا وجود لحركته. وهو محاولة لاغتيال التاريخ ليس إلا. لذلك؛ اهتمت الأمة بالسنة والأحاديث النبوية بالغ الاهتمام منذ أوائل تاريخ الإسلام حتى وقتنا الحاضر حفظا وشرحا وتبادلا، ووضعوا لها قواعد مضبوطة ومعايير ثابتة محكا لمصادقيتها وقابليتها.

بكتب قيمة مثل «السنة ومكانتها في الشريعة الإسلامية». وفي تلك الحقبة كانت ذلك الهجوم على السنة منحصرًا وسط بعض الكتاب لا يتجاوز إلى عامة الناس. أما الآن فقد زاد مدى رؤيتها حيث اتسعت شبكة مواقع التواصل الاجتماعي. ونتيجة لذلك وقعت شريحة كبيرة من الجيل الناشئ في فك «العصرانيين». وعلى ضوء هذه الخلفية يصدر هذا الكتاب ليقود الجيل الجديد إلى مناهل السنة الصافية. يبدأ الكتاب بموضوع عن منهج الدراسة في الحديث للدكتور حمزة عبدالله الملباري، رئيس قسم أصول الدين بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، وصاحب عدد من الدراسات في الحديث النبوي مثل «الحديث المعلول-قواعد وضوابط، ونظرات جديدة في علوم الحديث، والموازنة بين المتقدمين والمتأخرين في تصحيح الأحاديث وتعليقها». يشير الكاتب في مقاله إلى أمرين لا يعتني بهما عموما الباحثون الذين يعتمدون المنهج التقليدي في نقد وتقييم الحديث، أولهما أن المحققين القدماء كانت طريقتهم الاعتماد على المقارنة بين الإسناد ومتون الأحاديث المروية، لم تكن هذه الطريقة منهجا مبنيا على فحص أبعاد الإسناد العلمية. وثانيهما أن مجموعات الأحاديث التي تحتوي سنة النبي كانت محفوظة من تدليس الرواة في عصر الرواية ذاتها، وإنما تحقق ذلك من خلال الضحوص الدقيقة التي قام بها العلماء المتخصصون لسلسلة سند الأحاديث ليس يكون روايتها قد سجلت في دفتي الكتب. لذلك قال الإمام ابن المبارك إن الإسناد جزء من الدين. وبعد ذلك يذهب الكاتب إلى تفاصيل هذين الأمرين ويشرح مصطلحات الحديث مثل العلل والشاذ والمصحف والموضوع والموصول والمنقطع وغيرها. يُلقى الكاتب الضوء على جوانب ركز عليها القدماء وتجاهل

لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر ودفعوها إلى عشرة أنفس لكل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا عليه الموعد للمجلس فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم ومن البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول لا أعرفه، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون فهم الرجل، .... ثم انتدب رجل من العشرة أيضا فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال: لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحدا واحدا حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه. ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من إلقاء الأحاديث المقلوبة والبخاري لا يزيدهم على: لا أعرفه. فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا، وحديثك الثاني فقلت كذا وصوابه كذا، والثالث والرابع على الولاء حتى على تمام العشرة فرد كل متن إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل.

هذه الدقة والأمانة والثقة في رواية الأخبار، هل نستطيع أن نجد لها مثيلا في تاريخ الأمم؟ رغم ذلك كله يأتي بعد قرون أقزام يستهينون بجهود هؤلاء العمالقة وينكرون مكانة السنة في الشريعة الإسلامية ليمكن لهم تفسير القرآن على هواهم. وفي القرن الماضي كان هناك كتاب تأثروا بمؤلفات عدد من المستشرقين فأثاروا شبهات حول السنة النبوية. فتقدم علماء كأمثال الدكتور مصطفى السباعي بالرد عليهم

وقد بذل سلفنا جهودا جبارة في هذا المجال.. فمنهم من كرس حياته لجمع الأحاديث وسافر من أقصى القارات إلى أقصاها، ومنهم من تابع سيرة الرواة للتأكد من مصداقيتهم وسجلها في كتب متعددة، ومنهم من شرح كتب الأحاديث شرحا وافيا. ويكفي شاهدا لذلك المجلدات الضخمة التي كتبها العلامة ابن حجر العسقلاني شرحا للبخاري بعنوان «فتح الباري» الذي قال عنه الإمام الشوكاني « لا هجرة بعد الفتح » حين طلب منه الناس لكتابة شرح للبخاري. وقد خصص العسقلاني مجلدا بحجم كبير تتجاوز صفحاته أكثر من ٥٠٠ صفحة باسم «هدي الساري» يكتب في بدايته:

«فإن أول ما صرفت فيه فنائس الأيام، وأعلى ما خص بمزيد الاهتمام، الاشتغال بالعلوم الشرعية الملتقاة عن خير البرية. ولا يرتاب عاقل في أن مدارها على كتاب الله المقتضى، وسنة نبيه المصطفى، وأن باقي العلوم إما آلات لضمهما..... وقد رأيت الإمام البخاري في جامعه قد تصدى للاقتباس من أنوارهما البهية تقريرا واستنباطا..... وقد استخرت الله تعالى في أن أضم إليه نبذا شارحة لفوائده موضحة لمقاصده..... وأقدم بين يدي ذلك كله مقدمة في تبين قواعده وتزيين فرائده.....».

أما عن دقة الإمام البخاري البالغة وقوة حفظه الحادة في رواية الأحاديث النبوية، فشواهدا كثيرة وعجيبة نجدها في الفصل الأخير من مقدمة العسقلاني، منها ما روى أحمد بن الحسن الرازي عن أبي أحمد أنه سمع عدة من مشائخ بغداد يقولون إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه فعمدوا إلى مائة حديث فقبلوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد



بعضها صحيح ولكنه غير متواتر - أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة.... قيل أياما وقيل شهرا حتى كان يخيل إليه أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن.... وحتى كان يُخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله.... وأن السورتين (المعوذتين) نزلتا رقية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما استحضر السحر المقصود - كما أخبر في رؤياه - وقرأ السورتين انحلت العُقَد، وذهب عنه السوء. ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله وكل قول من أقواله سنة وشريعة، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول أنه مسحور، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعون من هذا الإفك. ومن ثم نستبعد هذه الروايات، وأحاديث الآحاد لا يُؤخذ بها في أمر العقيدة، والمرجع هو القرآن، والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد، وهذه الروايات ليست من المتواتر فضلا عن أن هاتين السورتين نزلتا في مكة هو الراجح مما يوهن أساس الروايات الأخرى، (في ظلال القرآن المجلد الثامن، الصفحة 294، 1967). لا شك أن جامع البخاري أصح كتب الحديث، ولكن ليس هناك رجل صائب بالمطلق ولا مخطئ بالمطلق. وقد تعرض البخاري لانتقاد المحدث الدارقطني في بعض الأحاديث كما أشار إليه العسقلاني في مقدمة فتح الباري. وفي مقال كتبه المولوي محمد سليم في هذا الكتاب وهو يسلط الضوء على تاريخ إنكار السنة في الماضي والحاضر قد رأى أن حديث السحر في البخاري غير قابل للاعتماد دراية لأنه يعارض النص القرآني.

ومن أهم العناوين التي تأتي في الكتاب تاريخ أمهات كتب الأحاديث، وكيفية التعامل مع الأحاديث الضعيفة، والمنهج في الجرح والتعديل، والرد على التهم المنسوبة إلى أبي هريرة، ومساهمات الأساتذتين الجليلين أبو الأعلى المودودي ومصطفى السباعي في الدفاع عن السنة، واهتمام الأمة في حفظ الأحاديث في العهد النبوي وفي القرون التالية. والكتاب لم يتم تحريره على وجه المطلوب إلا لما كان تتكرر معلومات في أكثر من واحد من المقالات مثل تعريف السنة وتاريخ إنكار السنة والآيات القرآنية التي تدل على أهمية السنة ومكانتها في الشريعة.

.. الكتاب: «علوم الحديث».

.. تحرير: إم. إس عبدالرزاق.

.. الناشر: مركز الجاليات الهندية،

الدوحة، قطر، 2020م، بلغة مالايالام.

.. عدد الصفحات: 254 صفحة.

\* مستعرب هندي



ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم». وهكذا يقوم بفحص بعض الأحاديث على ضوء القرآن ويفرض ما يخالف النص القرآني ولو كان سنده صحيحا. ولكن الغريب أن صاحب هذا الموقف حين يصل إلى الحديث الذي رواه البخاري عن سحر يهودي تأثر به النبي ينقلب موقفه رأسا على عقب ويحاول أن يُثبِت أن السحر حقيقة بدليل الآية: «فَإِذَا حَبَّالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى» (طه 66-67). وما يسمى هنا سحرا ليس إلا خفة يد يمكن أن يملكها أي واحد من خلال الممارسة، وقد كشف عن سرّه العاهل المغربي الراحل حسن في إحدى دروسه الرمضانية، أن هذا كان نتيجة استعمال الزئبق على مواد. والفرق بين تأثير خفة اليد وتأثير السحر الأسود واضح. وكان ابن خلدون أيضا يعتقد في حقيقة السحر، ولكنه كبوة جواد مثل زلات المؤرخ هيرودوت، كما أشار إليه ساطح الحصري في دراسته المستفيضة عن ابن خلدون وأفكاره. وكان من المستغرب أن المفكر الإسلامي المودودي كتب ضميمته طويلة في تفسير المعوذتين تبريرا لحديث البخاري بينما كان المودودي هو ذاته قد تحفظ على حديث آخر رواه البخاري نفسه حول النبي سليمان أنه ذات ليلة طاف على تسع وتسعين من أزواجه، لأنه مستحيل زمنيا. وهؤلاء جميعا يجعلون تأثير السحر بمثابة الأمراض، ولكنه مرض نفساني، والجنون أيضا من الأمراض النفسية، فهل يجوز أن يُنسب الجنون إلى النبي؟ وقد اتخذ الكاتب الإسلامي سيد قطب موقفا معقولا في الموضوع حيث كتب في تفسير السورتين المذكورتين في «ظلال القرآن»:

«والسحر لا يغير طبيعة الأشياء... ولكن يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر، وهذا هو السحر كما يصوره القرآن في قصة موسى عليه السلام... وقد وردت روايات

عنها المعاصرون من الدارسين. وفي الورقة الثانية تحت عنوان «مقدمة لدراسة الحديث» التي قدمها الدكتور بهاء الدين الهُدوي ينقل التعريف المشهور عن الحديث عند أهل السنة والجماعة، ثم يشير إلى الاختلاف في تعريف الحديث بين علماء أصول الحديث والفقهاء؛ لأن صفات النبي الخلقية لا تأتي في حدود تعريف الحديث في نظر الفقهاء، والسبب في ذلك يعود إلى حيثية النبي في نظر الفقهاء وغيرهم. الفقهاء ينظرون إليه شارعا بينما الآخرون ينظرون إليه هاديا أيضا. وتبحث الورقة الفرق بين الحديث والخبر والأثر تفصيلا، وتشرح المراحل الأربع التي تم فيها تدوين الأحاديث، المرحلة الأولى تبدأ من السنة الأولى من الهجرة إلى السنة 73 الهجرية. ومما تم تدوينه في هذه المرحلة ما سجّله عمرو بن العاص و«كتاب الصدقات» وصحيفة عمرو بن حمزة التي تحتوي تعليمات النبي حين عُين حاكما في اليمن وصحيفة علي التي تتضمن أحكام الزكاة وعقوبات الجريمة. والمرحلة الثانية هي عهد التابعين الذي يبدأ من سنة 70 هـ وينتهي في سنة 120 هـ. وفي هذه المرحلة أصدر الخليفة عمر بن عبد العزيز أمره لجمع الأحاديث. والمرحلة الثالثة من 120 إلى 150 هـ كانت مرحلة التصنيف. وفي هذه المرحلة صنف الإمام مالك الموطأ عام 143 هـ. أما المرحلة الرابعة، ففيها ظهرت الكتب الموسوعية في الحديث وكتب الجرح والتعديل وتأليفات في علم مصطلحات الحديث. يذكر الكاتب في مقاله عددا من الكتب التي صنفت في الصحاح والموضوعات والعلل كما يلقي الضوء على الفرق بين الآحاد والمتواتر.

وفي مقال عبدالله حسن حول حجية السنة يستدل لها بكثير من الآيات القرآنية مثل: «يأيتها الناس أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول» (النساء: 59). ولنفس الكاتب مقال آخر يطالب فيه الباحثين الجدد في الأحاديث النبوية بأن يصنفوا جامعا جديدا مبنيا على مواضيع يحتوي كل حديث صحيح ورد في كل واحد من المواضيع لتفادي الالتباس والإرباك بشأن بعض الأحاديث. مثال ذلك حديث رواه البخاري عن أبي أمامة الباهلي أنه رأى سكة وشيئا من آلة الحرث فقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول، لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل». ويشير إلى أن هذا الحديث يخالف القرآن وكثيرا من الأحاديث بما فيه ماروي البخاري ذاته مع مسلم عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرضا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة». ويؤول الحديث المذكور أولا أن قد له خلفية لم يروها الراوي، وأنه قد تكون عن القاعدين عن الجهاد الذين قد شغلتهم الزراعة. وينقل ما رواه أبو داود عن ابن عمر بهذا الصدد أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا تبايعتم بالعينة واتخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا



## نهب الممتلكات العربية.. رياضة وطنية إسرائيلية آدم راز

أحمد أشقر \*

في أول يوم من سنة ٢٠٢١، وثقت كاميرا محاولة جنديين إسرائيليين سرقة مولد كهربائي يملكه الفلسطيني هارون أبو عرام (٢٤ سنة) الذي يعيش في قرية التوبة في منطقة الخليل. وعندما حاول منعهما قام أحدهما بإطلاق رصاصة اخترقت رقبته مما أدى إلى شلله التام. أجمعت المؤسسات الحقوقية الإسرائيلية على أن محاولة الجنديين كانت سرقة المولد لبيعه، وليس مصادرته وفقاً لأمر عسكري خاص. فتحت محاولة سرقة مولد أبو عرام ملفاً وسجل السرقات التي قام بها جنود ومستعمرون يهود في فلسطين الذين يسرقون من المتاجر والمنازل التي يداهمونها أموالاً ومجوهرات. ويقوم العاملون على الحدود مع الأردن والجواز بسرقة مجوهرات من النساء المارات فيها. وهناك المئات من النساء اللواتي يؤكدن أنهن رأين الجندي أو الجندي «يسحب» قرطاً أو خاتماً ذهبياً أو ورقة نقدية أو أكثر من فئة الـ ١٠٠٠ دولار أو الـ ٥٠٠ ديناراً من محافظتهن. في العادة يحجم الفلسطينيون رجالاً ونساءً عن تقديم شكاوى خشية توريطهم بتهمة ما من آلاف التهم التي يُلبسها اليهود للعرب منذ سنة ١٩٤٨.

واسعة بدأ الحديث عنها علنا. ولكثرة الممتلكات التي خلفها المطرودون وراءهم تنظمت في المدينة عصابات سرقة محددة المهام، هاجمت بيوت العرب وسرقت أمتعتها. وعندما اكتشفت تلك العصابات حجم هذه الممتلكات وقيمتها قام بعضهم بتكليف الأطفال في السرقات الصغيرة. وخلال عمليات النهب والسرقة بدأت العصابات التخصص بأنواع مختلفة من السرقات. ونقل المؤرخ آدم راز عن مدعي عام كتيبة «الأكسندروني»، التي شاركت في احتلال عدة مدن ومواقع، ما يلي: «كان النهب بالجملة، وقد وصل تقريبا إلى هرم السلطة. يتوجه إلينا أناس جديون من المناطق المختلفة كي يعملوا معنا، لكن علينا أولا القضاء على عصابات النهابين، عدا ذلك لا يساعدنا شيء. فقد كان بإمكاننا مهاجمتهم فوراً، لكن ذلك يتطلب إنذاراً من فوق. فقد زارني البعض زيارات كان هدفها قول: 'لا تتدخل في هذه الأمور'، بما يعني التهديد إن واصل عمله ضد النهابين (ص: ٩٢-١١٩). ويتابع المؤرخ آدم راز، أعمال النهب للمدن الأخرى مع التعرض للجدل الدائر حول تلك العمليات في الأوساط السياسية. يقول المؤرخ إنه لما وصلت الوحدات الصهيونية إلى عكا في الثالث عشر والرابع عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٨، كان الأهالي يتملكهم الخوف والهلع نتيجة سقوط المدن الأخرى. ولا سيما جراء ما سربه اليهود عن أهوال مجزرة دير ياسين التي اقترفوها في العاشر من شهر أبريل من العام نفسه. لذا قام قائد هذه الجماعات موشي كرميل بتهديد أهالي المدينة بقوله: «إذا واصلتم المقاومة ولم تستسلموا خلال نصف ساعة سنبديكم إبادة مطلقة»، فاستسلم الأهالي. بعدها صادر الجيش أجهزة الراديو، كما سرق الجنود خزنة جامع الجزائر وشعرات من شعر النبي محمد (ص). كما فتش الجنود عن المخطوطات والمنمنمات

نُهبت بيوتها، ويورد عشرات الوثائق اليهودية التي تؤكد ذلك. في الأثناء حذر وجهاء المدينة العرب من أعمال النهب وقدموا شكاوى ضد النهابين، لكن المحتلين اكتفوا بالاستنكار ولم يفعلوا شيئا من أجل إيقاف تلك الأفعال ومعاقبة الجناة (ص: ٣٨-٦٢). أما مدينة القدس التي كانت مدينة كبيرة ومركزية في الحياة الثقافية والروحية العربية، فقد كان احتلالها معقداً وطويلاً، بسبب الظروف الدولية، لذلك استمرت فيها عمليات النهب طيلة شهرين. ويأتي آدم راز على ذكر نهب مكتبة المرابي والمعلم خليل السكاكيني، فضلا عن خزنة المشروبات الروحية الفاخرة التي كان يمتلكها. هذا وقد أتلّف المستعمرون واللصوص اليهود الأثاث المصنوع من خشب الماهجوني الفاخر بتحويله ألقانا للذجاج وإطلاق الرصاص على الأواني الصينية العتيقة والتحف الفنية من صور وتمائيل ومجسمات. وقام أحدهم بنهب بيانو وكسره ليضعه وقوداً يتدفق عليه. ونتيجة لوفرة كمية المنهوبات أنشأ اللصوص أسواقاً في الأحياء لبيع المسروقات لليهود والإنجليز وللمجموعات الأجنبية التي كانت تقطن المدينة (ص: ٦٢-٩١).

بعد نهب كل من طبريا وحيفا والقدس، تنهت القيادات الإسرائيلية إلى ضرورة عدم تكرار الفوضى في مدينة يافا، التي كانت على وشك الاجتياح. لذا قامت إدارة مستعمرة تل أبيب وقيادة «الهجناه» التي احتلت المدن السالفة، بتحذير المستعمرين والجنود من تكرار عمليات النهب، بواسطة توزيع منشورات وتعليق تحذيرات على جدران بيوت عرب يافا ومؤسساتها، محذرين السكان اليهود من اختلاس ممتلكات غيرهم، لكنها لم تفلح. وذلك لأن النهابين والجنود عمدوا في البداية إلى القيام بأعمال اختلاس غير مُعلنة، وعندما اتضح أن عمليات النهب أصبحت

ويشكل كتاب المؤرخ الإسرائيلي «آدم راز»: «نهب الممتلكات العربية في حرب الاستقلال» النكبة» دراسة مهمة تتحدث عن نهب أملاك الفلسطينيين خلال النكبة. ووفق قيام المستوطنين، جنوداً ومدنيين، بالسطو على أملاك المطرودين ونهب محتويات منازلهم، بعد أن أصبحوا لاجئين.

وقام الباحث «راز» بتوزيع كتابه إلى قسمين رئيسيين: جاء في القسم الأول المعنون بـ«نهب الممتلكات العربية- سجلات السرقات»، حديث عن تزامن عمليات نهب ممتلكات العرب مع تاريخ احتلال مدنهم وقراهم من قبل الميليشيات الاستعمارية اليهودية. وقد استهل ذلك بنهب مدينة طبريا، أولى المدن التي تم احتلالها في شهر أبريل ١٩٤٨. حيث شكّل نهبها نموذجا تم احتداؤه في بقية المدن. كانت المدينة قبل النكبة مأهولة بـ ٤٧٪ من السكان العرب. وينقل الباحث في إحدى الشهادات ما يلي: «مثل الجراد، داهم سكان طبريا «اليهود» المنازل «العربية» وكان علينا ضربهم بالكرايبج وإجبارهم على ترك الأشياء على الأرض». كما نقل عن يوميات يوسف نحمانى (١٨٩١-١٩٦٥)، أحد الكتاب الإسرائيليين «داهمت جحافل من اليهود المحلات وبدأت في نهب أمتعتها... كانوا بالعشرات، ولم تسلم منهم منازل العرب وحوانيتهم». وبعبارة أخرى نهب اليهود جيرانهم العرب (ص: ٣٠-٣٨).

وعلى إثر سقوط طبريا، جاء دور حيفا في النصف الثاني من شهر أبريل أيضا. وعلى ما يورد المؤرخ سرق اليهود من منازل العرب الأثاث والأمتعة، ومن الحوانيت الأغذية والآلات، ومن المصانع والورش المعدات ورموا بعضها في الأزقة والشوارع. وقد شارك في عمليات النهب الجنود والضباط من «الهجناه». ويأتي الباحث (آدم راز) على ذكر عشرات العائلات العربية التي



«داء عضال انتشر في أوساط المجتمع. وقد أدانته كل القيادات الإسرائيلية وعلى رأسهم (بن غوريون) الذي قال: «إن غالبية اليهود لصوص» رغم أن أحد زملائه في السلطة (يوسيف شبيتسك) قال قولاً يناقضه، بتأكيد أن النهب كان سياسة رسمية. ويضيف المؤرخ (راز) من جانبه أن سياسة النهب والسرقة خدمت (بن غوريون)، لأن طرد عرب فلسطين شكل أداة لترسيخ سياسته. أما نهب الممتلكات فقد شكّل عملاً يُضاف إلى عدة أعمال أخرى في عملية الطرد، منها تجفيف الآبار وسرقة أنابيب ومحركات للري، إضافة إلى حرق المزارع، وقتل الدواب، وتدمير القرى، وهو ما أدى إلى هدم البنية التحتية كي لا يفكر اللاجئون في العودة.

ولنا أن نسأل: هل فعلاً لم تتمكن قيادة المستعمرين من منع إتلاف الممتلكات أو تحجيم الأضرار؟ الجواب أكثر تعقيداً: يمكن أن نصدق رفض بعض القيادات لتلك الأعمال، وذلك للحفاظ على مبدأ الانضباط والانصياع لأوامر الجيش لا غير؛ ذلك أن تلك القيادة كانت قلقة على سمعتها في العالم، وكانت تعلم علم اليقين أن بدون نهب ممتلكات العرب من قبل الأفراد لن يتسنى تلمس نتائج المشروع اليهودي بشكل شخصي، وعليه تفاضت المؤسسة الصهيونية عن النهب. ولو كانت هذه المؤسسة جادة لعاقبت كل من نهب وسرق بأشدّ العقوبات العسكرية؛ ولما رفضت تطبيق قرار ١٩٤ الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٤٨، والقاضي «بوجوب السماح بالعودة...» ووجوب دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة إلى ديارهم...» لكنها اكتفت بعقاب بعض الأفراد لغرض الدعاية فحسب. والسؤال المطروح في هذا السياق: لماذا استمرّ رفض إعادة الممتلكات المنهوبة لأصحابها لمن بقي داخل فلسطين؟ ولماذا تمّ قتل العشرات من اللاجئين ممن حاولوا «التسلل» إلى فلسطين لأخذ بقرة أو شاة من أجل إطعام أطفالهم الرضع في مخيمات اللجوء؟ ويخلص الباحث أن عملية النهب خدمت بن غوريون. ومن جانبنا نرتئي أن الرجل كمفكر وقائد استعماري إستراتيجي، كان يعلم أن النهب إحدى الوسائل لتثبيت اليهود ولدعم كياناتهم الاستعماري في فلسطين.

## • الكتاب: «نهب الممتلكات العربية خلال حرب الاستقلال»

• المؤلف: آدم راز.

• الناشر: كرم للناشر، القدس، 2020م، بالعبرية.

• عدد الصفحات: 323 صفحة.

\* باحث في الدراسات الدينية ومترجم من فلسطين



ويُفرد الباحث أكثر من ثلاثين صفحة لعمليات نهب القرى العربية، التي بلغ عددها أكثر من خمسمئة قرية والتي لا يختلف نهبها عمّا شهدته المدن، سوى بقيام المستعمرين في المستوطنات الزراعية بسرقة الثروة الحيوانية من أبقار وماعز وماشية ودواب (ص: ١٧٠-٢٠٢).

ويخلص المؤرخ آدم راز إلى أن عمليات النهب قد استمرت إلى غاية العام ١٩٥٠؛ لكنه يؤكد أن القيادات العسكرية والسياسية الإسرائيلية قد استنكرت هذه الأعمال ممّا يبرّئها من أية مسؤولية. غير أن الجلي أن المستعمرين اليهود قد قدموا لاستعمار فلسطين مشحونين بعداء ديني لعرب فلسطين. والحال أن من يملك الحقّ الديني باستعمار الأرض وتهجير شعبها وقتله، يسهل عليه نهب ممتلكاته وإتلاف مكتسباته؛ فأثناء عدوان ١٩٤٧-١٩٤٨ لم يكن هناك تمييز بين المدنيين والعسكريين من المستعمرين، فالذي يزرع الأرض ويعمل في الإنتاج في فترة ما من الشهر، سيكون حتماً عسكرياً في فترة أخرى. تشير كذلك إلى أن الغالبية العظمى من المستعمرين كانوا فقراء ومعدّمين على إثر مقدمهم من أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. لذا وجدوا في ممتلكات العرب غنيمة ساعدتهم على تحطّي سوء أحوالهم المعيشية.

ومن جانب آخر، طالت عمليات النهب والسرقة المكتبات، حيث سرق المستشرق اليهودي (مثير يعقوب كستر، ١٩١٤-٢٠١٠)، من الجامعة العبرية، أثناء النكبة، مكتبة «صديقه» الشيخ محمد نمر الخطيب (١٩١٨-٢٠١٠)، الذي كانت عائلته تتولى مهام الإفتاء والإشراف على نقابة الأشراف في حيفا إبان الحكم العثماني وحتى مقدم الاحتلال.

وفي القسم الثاني من الكتاب، وهو بعنوان: «نهب الممتلكات العربية- سياسة مجتمع»، يصل آدم راز إلى نتيجة مفادها أن «النهب الفردي» و«النهب الجماعي» كلاهما عمل مشين، وهو

الإسلامية، لكنهم في الحقيقة كانوا يبحثون عن المال، كما يؤكد الباحث. ثم هجم الجنود وسرقوا أثاث المنازل. وقامت مجموعة من الجنود باغتصاب فتاة، قتلوا والدها وجرحوا والدتها. سجل القادة العسكريون الحدث، وبعدها أدين أحد الجنود بالسجن لمدة ثلاث سنوات (ص: ١١٩-١٢٣).

وكان لاحتلال مدينة صفد المختلطة، في أوائل شهر مايو سنة ١٩٤٨، والتي يسكنها بحودود ١٥٪ من اليهود أهمية كبرى؛ لأن القيادتين العسكرية والسياسية أولت المدينة أهمية كبرى في السيطرة على الجليل الأعلى، ولمنع تدفق المقاتلين من سوريا ولبنان والحيولة دون عودة المطرودين العرب إليها. لذلك أقامت السلطات العسكرية حواجز بين الحي اليهودي والأحياء العربية وبدأوا بإحصاء الممتلكات العربية لضبطها بصورة رسمية. لكن قيام «الكيوتسات» بنهب قطعان الأبقار والماشية والدواب كان إنذاراً ببداية النهب من قبل سائر المستعمرين والعصابات العسكرية (ص: ١٢٢-١٣٢).

من ناحية أخرى، شكّل احتلال بيسان في غور الأردن أهمية خاصة؛ لأن المدينة كانت تفصل مرج ابن عامر عن شرق الأردن. وبعد أن أعطى بن غوريون أوامره بتهجير ما تبقى من سكان المدينة، بعد موجة الطرد الأولى، بحجة وجود مسلحين عرب. أقدم الناهبون اليهود، في البداية، على سرقة القطاع السياحي الصغير، فندقين ونزل وثلاثة مقاهٍ وثلاثة أقبية لإنتاج النبيذ، تلتها بقية الممتلكات العربية. يقول الباحث (راز) بعدم وجود وثائق تدلّ على النهب؛ لكنه يؤكد على وجود مستعمرين صهاينة في المنطقة تفاضوا عن عمليات النهب، بما يعني تواطؤ المحتلين مع الناهبين (ص: ١٣٣-١٣٨).

بعد احتلال مدينتي اللد والرملة في النصف الأول من شهر يوليو سنة ١٩٤٨ بدأت عملية سرقة ممتلكات الأهالي ونهب المؤسسات العامة والورش والمصانع المختلفة، واستمرت حوالي شهرين. سرق بعض العسكريين الأمتعة ونقلوها إلى بيت خاص في مستعمرة هرتسليا. وفي نهاية يوليو نقل العسكر من مدينة اللد «ما لا يقل عن ١٨٠٠ شاحنة، محملة بالأغراض والأمتعة. واستمرّ النهب رغم شكاوى ما تبقى من العرب، فقد تواصل الاعتداء على ممتلكاتهم شهراً طويلاً بعد الاحتلال. توثق مصادر الباحث سرقة المساجد والأديرة والكنائس (ص: ١٣٨-١٦٠).

ويشير مؤلف الكتاب إلى أن نهب المساجد والكنائس والأديرة وهدمها ترافق مع عدوان ١٩٤٨ مباشرة، ولا يزال التوثيق لهذه الجرائم سرياً بغالبيتها. أما الوثائق والشهادات التي يستخدمها الباحث فهي قليلة، وتحدث عن أعمال نهب محدّدة تمت تحت غطاء «عمل عسكري»، مثل كسر إصبعي تمثال للمسيح أو للعدراء مريم لسرقة خاتم. كما اختلس النهابون ذهباً وفضة من صلبان الكنائس والأديرة، وأيقونات وتمائيل ذات قيمة دينية وتاريخية عالية. وعلى الشاكلة نفسها تمّ نهب الجوامع والمساجد (ص: ١٦٠-١٧٠).

# إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات في اللغة الفرنسية (سعيد بوكرامي)

الكتاب: نهضة أم نهضات؟  
المؤلف: جاك غودي  
الناشر: أرمان كولان. باريس  
تاريخ النشر: 2020  
عدد الصفحات: 424 ص اللغة الفرنسية



يُعالج عالم الاجتماع وعالم الأنثروبولوجيا الشهير جاك غودي في هذا الكتاب الجديد أحد الأسئلة الرئيسية في مجال التأريخ الغربي: هل يستحق عصر النهضة الأوروبي مكانته الفريدة كأساس للحدثة الاقتصادية والفنية والعلمية الأوروبية؟ يضع جاك غودي النموذج الأوروبي تحت المجهر لمقارنته بالنهضات التي حدثت في أماكن ثقافية أخرى، ولا سيما في العالم الإسلامي والصين. لقد مرت كل هذه البلدان في الواقع بلحظات مُماثلة من التساؤل عن المبادئ والفنون، تلاها الانفتاح الثقافي والاقتصادي. كما أكد الكاتب على أن أوروبا مدينة لتأثيراتها الخارجية. تندرج النهضة ضمن دراسات التاريخ النقدي للمركزية الأوروبية التي طورها غودي في كتبه الأخيرة وتمكن أخيراً من وضعها قيد المساءلة والتشكيك في أن الرأسمالية أو الليبرالية أو الفردية لا زال من الممكن اعتبارها ابتكارات أوروبية. يشكل هذا العمل الكبير والقوي والمنفذ ببراعة نموذجاً لا مثيل له للتأريخ الموسوعي الموجه إلى جميع عشاق تاريخ الحضارة الغربية وعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع، وكذلك إلى جميع المهتمين بأسس بناء الحدثة.

الكتاب: كراهية الثقافة. لماذا تحتاج الديمقراطية إلى مواطنين متعلمين.  
المؤلف: كونراد بول ليسمان  
الناشر: أرمان كولان. باريس.  
تاريخ النشر: 2020  
عدد الصفحات: 224 ص اللغة الفرنسية.



يتحدث الجميع عن الثقافة والتكوين والتعليم. لقد أصبحت المبادئ العلمانية لحل المشاكل كلها - من مكافحة الفقر إلى دمج المهاجرين، من تغيير المناخ إلى مكافحة الإرهاب. في حين أن الثقافة هي شعار حاضر باستمرار في مجتمعنا، إلا أن المطالبات الثقافية الجادة تعتبر استفزازات خبوية من عصر مضى. في هذا السياق يستنكر كونراد بول ليسمان الوحشية الفكرية التي نتجت عن أولوية الاقتصاد والتكنولوجيا، لأنها مدمرة للعقل الثقافي بشكل خاص منذ ظهور شبكة الكمبيوتر العالمية. لهذا يتأمل الكاتب مرتكزات الخطاب الأخلاقي والمنطق السياسي، الذي يخلط بين التعليم والمهارات، لأن ذلك أحدث انقلاباً في القيم مهددا التفكير الخلاق والحرية الإبداعية - مما أدى إلى كراهية حقيقية للتكوين الثقافي الكلاسيكي للمواطن.

الكتاب: أين أنا؟ دروس الحجر الصحي  
المؤلف: برونو لاتور  
الناشر: دار لاديكوفيرت. باريس  
تاريخ النشر: 2021  
اللغة: الفرنسية



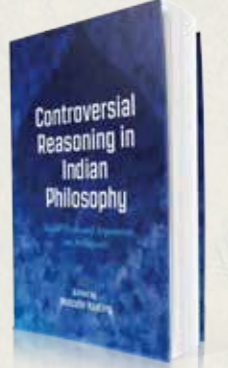
كانت تجربة الحجر الصحي مروعة على المستويين الفردي والجماعي. إن الدول والأفراد على حد سواء سعت إلى الخروج منه بأنفسها، على أمل العودة في أسرع وقت ممكن إلى "العالم السابق" معتمدين في ذلك على سياسة "الانتعاش" بأقل الخسائر وأقل الموارد وأكثر المخططات غموضاً وابتكاراً. ولكن هناك طريقة أخرى للتعلم من هذه التجارب، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين خسروا الكثير في خضم الصراع مع الوباء والبلاء لكن يبدو أن هؤلاء بدأوا يدركون أنهم لن يفقدوا أنفسهم، خاصة وأن الأزمة الصحية متأصلة في أزمة أخرى أكثر خطورة؛ وأن هذه الفرصة يجب اغتنامها لكي يفهموا أخيراً مكانتهم في العالم، وفي أي أرض سيتمكنون أخيراً من الانكفاء على أنفسهم - من أجل فهمها ونقدها وتطويرها وفق الإكراهات والصعوبات والنكسات التي استجدت في حياتهم! إن كتاب "أين أنا؟" يتعقب تفاصيل هذه الوضعية المفاجئة، ويستلهمها لخلق وضعيات عقلانية وأكثر استقراراً واستدامة.

يعتبر الكاتب برونو لاتور ما حدث من اختلال في الوجود البشري فرصة للسفر إلى الذات والنزول إلى أعماقها، قد يكون أحياناً النزول عنيفاً، لكنه سيمكننا من استكشاف ذاتنا في الأمكنة التي نعيش فيها. كيف إذن بعد الفاجعة سنساعد أنفسنا على الاستمرار والاستقرار والازدهار؟

# إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات الفلسفية في اللغة الإنجليزية (محمد الشيخ)

عنوان الكتاب: الاستدلال الجدلي في  
الفلسفة الهندية  
اسم المؤلف: مؤلف جماعي تحت  
إشراف مالكوم كيتين  
دار النشر: بلومسبوري  
سنة النشر: 2020



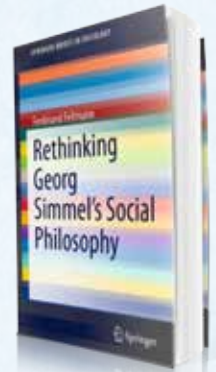
طرائق المعرفة والمحااجة في الحضارات وبين الأمم طرائق قددا. والفلاسفة وأهل الميزان والنحاة والبيانويون والبلاغويون والمتكلمون هم من عنوا بها أكثر من غيرهم. وما كانت الهند بدعاً بين الأمم بهذا الصدد. وإن إحدى أهم طرائق المعرفة والمحااجة عند الهند كانت هي الطريقة المسماة "أرتاباتي". وهي طريقة مشهورة بين فلاسفة الهند القدامى. وهذا الكتاب ضالة كل من يريد أن يتعرف على طرائق المحااجة والمناظرة في الفلسفة الهندية. إذ يأخذ المساهمون فيه بيد الباحث برفق ومن غير توغل مجازف إلى هذه الطرق، مترجمين أهم مظاهرها السنسكريتية إلى اللسان الإنجليزي لأول مرة في العديد من الأحيان، ومحشيين عليها التحشية، وملقين بالضوء على غوامضها، ومقارنين لها مع طرائق منطق الحجاج الغربية، وواقفين عند أهم تيارين من تياراتها الثرة: "نيانا" و"ميمامسا" ...

عنوان الكتاب: التقويم المتجدد  
لفكر بيكو (الأرسطية والقبالية  
والأفلاطونية في فلسفة جيوفاني  
بيكو الميرندولي)  
اسم المؤلفة: صوفيا هوليت  
دار النشر: بالغريف ماكميلان  
سنة النشر: 2021



"أيها الآباء المقدسون الأجلاء، قرأت في كتابات العرب، لدى عبد الله المسلم، أن أعظم منظر في الكون هو الإنسان". بهذا نطق الفيلسوف النهضوي الإيطالي بيكو الميراندولي مخاطباً آباء الكنيسة - وهم مَنْ هم - في زمانه. وبهذا، لربما يكون بيكو هذا الفيلسوف الوحيد الذي انفرد بافتتاح كتاب له عظيم في نوعه - في كرامة الإنسان - بقول لمفكر مسلم. وهذا الكتاب الجامع مناسبة للتعرف على فلسفة هذا الرجل صاحب التوفيقات: 1- التوفيق بين الفلسفة واللاهوت. 2- التوفيق بين العقل والإيمان. 3- التوفيق بين المسيحية والقبالية (التصوف اليهودي) والأفلاطونية والأرسطية. وهو كتب يُعَرَّفُ بهذا الفيلسوف الفذ من خلال تقصي مساره، واستقصاء صلته بفلاسفة عصره، وتسويق فكره في مساقه، وعرض مختلف مناحي فكره: تصوره للكون، فلسفته الماورائية (مسألة الرب ودور العقل فيها)، تجربته النسكية الصوفية، تصوراته الأخروية ...

عنوان الكتاب: النظر المجدد في فلسفة زيمل الاجتماعية  
اسم المؤلف: فردناند فيلمان  
دار النشر: سبرينجر  
سنة النشر: 2021



شأن الفلسفة الاجتماعية أنها بحث فلسفي - تساؤلي نقدي - في الشأن الاجتماعي. وقد عاد الاهتمام إلى هذا المبحث الفلسفي خصوصاً بعد عودة الفلاسفة المعاصرين إلى النظر الفلسفي في الشأن الاجتماعي؛ على نحو ما نجده لدى ممثلي مدرسة فرانكفوت الألمانية من تفكير يورغن هابرماس في الشأن العمومي وتفكير أكسل هونيث في الاعتراف والإنكار والكرامة والمهانة. وهذا الكتاب نظر في فلسفة المفكر الاجتماعي الألماني جورج زيمل؛ أي اعتبار أهم الموضوعات الاجتماعية التي تناولها في كتاباته؛ شأن فلسفة الحداثة وفلسفة المال وفلسفة الحب وفلسفة الثقافة وفلسفة المدينة وغيرها: التفاعل، التبادل، الثنائية، التصارع، التشاخص ... في إطار التجربة العيانية الموقوفة على حميمية الأزمنة الحديثة. وقد عمد المؤلف إلى وضع هذه الفلسفة الاجتماعية في سياقها التاريخي، محللاً إياها وفق منهج الفلسفة التأويلية، معارضا بينها وبين مختلف أولئك الذين تأثر بهم زيمل وأثر فيهم من الفلاسفة وعلماء الاجتماع الألمان.

# تصفح النسخة الرقمية ... مجلة التفاهم

عنوان العدد: الوضع العالمي والرؤية الأخلاقية

عبدالرحمن السالمي

## المحاور

- الرؤية القرآنية لصالح الإنسان والعالم .. أحمد الزعبي
- مفهوم « العصر المحوري» عند كارل ياسبرز .. محمد الشيخ
- الرؤى الإغريقية لصالح الإنساني .. مصطفى النشار
- أوروبا العصور الوسطى: القانون الطبيعي والكنيسة والإقطاع .. حاتم الطحاوي
- الحربُ والدولةُ القومية وتكوّن .. فتحي المسكيني
- ميثاق الأمم المتحدة وإعلان حقوق الإنسان ونظام العالم المعاصر.. عبدالناصر السيد محمد الجهاني
- النظام الدولي الجديد من منظور الفلسفة الاجتماعية .. الزواوي بغوره
- التضامن الإنساني في الأزمات والبدائل الضرورية للبقاء.. محمد بالزاشد
- هويّات مشقوقة : عن مسارات القيم في العالم المعاصر.. عادل حدجامي
- إصلاح النظام العالمي : استراتيجيات القوة واستراتيجية المؤتلف الإنساني.. رضوان السيد
- المؤتلف الإنساني وتجديد نظام العالم .. عز الدين عناية

## دراسات

- التعليم والأخلاق في الاسلام - سيباستيان غونتر
- المقاربات القانونية الغربية المعاصرة: بين الشرع الإسلامي والقانون الدولي - محمد الشيخ
- مركزية الأخلاق في المنظومة الإسلامية انطلاقاً من السنة النبوية - عبدالله الجباري

## وجهات نظر

- علم الكلام الجديد كآلية من آليات إصلاح وتجديد الخطا الديني - سعيد عبيدي
- الأقليات المسلمة في الغرب وشروط الاندماج - محمد الدرديري

## آفاق

- العلوم الاجتماعية والقرآن .. ديل إكلمان
- مداخلات أولية حول الكتابات المؤرخة للتفسير باللغة العربية: مقارنة مبنية على علم تاريخ الكتاب .. وليد صالح

## الإسلام والعالم

- عالم العرب والعرب في العالم .. إعداد: رضوان السيد



النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها

مجلة التفاهم هاتف: 24644031 - 24644032 +968 , فاكس: +968 24605799

البريد الإلكتروني: www.alfahom.net - al.tafahom@gmail.com - tasamoh@gmail.com